سيرة الضوء:

مسمار في جدار الذاكرة

رداد السـلامي

سيرة الضوء:

مسمار

في

جدار الذاكرة

رداد السلامي

الإهـــــداء:

إلى أمي التي أرضعتني قيم الوفاء والانتماء؛ لأرث عنها أنقى أحلامي وآمالي.

النقية التي ربما كسر الزمن بقسوته قوتها, لكنها لم تستسلم، فحين أنجبتني رأيت في عينيها ذلك الإصرار العنيد، كانت تتحدى القدر؛ لتؤكد له أن أحلامها لن تموت بل تحققت بميلادي ويوم أكون رجلا يدافع عن الحرية والكرامة الإنسانية ...

العظيمة التي زرعت في حدقات عيني ضوء الرجولة ...

مهموم بالمستقبل

لدى رداد السلامي وعي بما تشكله التجربة من استبصار عميق لحقائق الأشياء والأفكار، وهو مهموم بمستقبل الآخرين, ويسعى جاهدا عبر كتابة إلى الإسهام في بلورة رؤية مضيئة تلهم الأجيال في كفاحها القادم من أجل تحقيق وجودها بشكل قوي سليم؛ انطلاقا من وعيها بذاتها القيمية ووفقا لهويتها الأصيلة التي تعمل على تعزيز قوتها النهضوية الحضارية.

فالهوية كما يرى السلامي: حجر الزاوية في حلم تحقيق النهضة، وعنصر- قوتها الثابت والمتحرك معها باستمرار, وبدونها أحلام النهضة وخياراتها موءودة، ويرى السلامي أن طبيعة العربي وائدة، وأن معظم مثقفي العرب يسعون جاهدين من أجل وأد هويتهم الإسلامية بجهل مستميت؛ معتقدين أن اللحاق بالغرب وتمثل قيمه المادية والفلسفية سيفتح الباب نحو الطريق إلى النهضة والتقدم .

ويؤكد الكاتب أن الفكر أبرز مرتكزات القوة, ونوعية اختيار الأفكار وإنتاجها يشكل قوة مترابطة مع مختلف عناصر القوة الأخرى، كما أن الأهم في السياسة هو: حيازة عناصر القوة في المجتمع لا البحث عن التوازنات، فمن يمتلك عناصر القوة يستطيع أن ينتج عملية التوازن, ويهمن على محاولات التراجع والالتفاف .

ويرى السلامي أن الإسلام وفر الأسس الفكرية والقيمية المحققة لحيازة القوة واستحضارها وفق عمل دؤوب ومخطط ومنظم مستمر, وهذا ما غفل عنه المسلمون أو تجاهلوه عمدا .

رداد السلامي كاتب من جيل جديد متجاوز للهويات الضيقة, ومنحاز للهوية الجامعة بوصفها القوة القادرة إن فهمت بشكل صحيح وسليم على تحقيق النهضة والقوة, وهذا يعود إلى نوعية الإدراك التاريخي أيضا - كما يقول - لماضينا وتاريخنا الإسلامي, وقدرتنا على تفسيره بما يمنحنا القدرة على بناء وعي نهضوي يثق بذاته .

فمن الصعب على مجتمع ضعيف الوعي وضعيف الذاكرة التاريخية أن يترك بصمته, وأن يخط كيانه في مسرح التاريخ - كما يقول مهندس السياسة الخارجية التركية أحمد داود أوغلو - حيث إن نوعية الإدراك التاريخي لأي مجتمع تعتبر الفارق الأكبر بين المجتمعات الفاعلة التي تمتلك طموحات بخصوص التأثير على المجرى التاريخي وبين المجتمعات السلبية الواقعة تحت تأثير الغير والتي يتحدد وضعها في سياق المجرى التاريخي .

ولذلك يرى السلامي أن نهضة تركيا الحديثة استندت إلى وعيها بذاتها وتاريخها وهويتها التي ترابطت مع جملة من عناصر القوة المختلفة؛ الجغرافية والتاريخية, بالإضافة إلى وجود القيادة المخلصة في انتمائها, والذكية في وعيها, والنقية في ذاكرتها وطموحها .

مقدمة المؤلف

غالبا أجيد إدراك الانبهامات المستخفية أو التي لا تستطيع الإفصاح عن ذاتها من خلال سلوك يجعلها مدركة.

وكلما تعمقت في مسألة كهذه, نمت لدي موهبة الإدراك لما هو مستضمر، لا تظهره حتى الملامح أو النبرات الصوتية.

لست متعاليا, ولغتي ليست كذلك، فأنا دائما أتعمد التقشف في لغتي؛ كي تكون رؤيتي بسيطة ومفهومة، لكن أحيانا لدي وعي يخرجني من نسق البساطة إلى أنساق رؤيوية وفكرية أكثر تعقيدا, وهنا تتبدى قدرات مختلفة، ولغة لا يفهمها إلا أولئك الذين يتقنون الحياة بين الكلمات والأفكار المختزنة لكل معنى رفيع يعتقد الجهلاء أنه مبهم .

القراءة كفيلة بتحقيق نتاج من الوعي القادر على ترقية الوعي الإنساني ومنحه الفاعلية الذاتية، وكلما تعمق الإنسان في قراءة الفكر والأدب ونتاجات العقل الإنساني ومارس ربطا واقعيا محكم الصلة بين المعرفة والواقع, زاد فهمه للواقع الإنساني, وزادت قدرته وخبرته في إدراك مشاكله, وغياب وعيه بذاته وإمكاناته التي يمكن أن تحفزه لصناعة نهضة حقيقية.

إذا أكلت عقولنا من شجرة المعرفة ستتشبع بطوننا حتما، مشكلتنا كعرب ومسلمين أننا نهتم ببطوننا أكثر من اللازم, ونقدمها في الأكل على عقولنا !

فأول كلمة نزلت في القرآن: هي: "اقرأ", وليست "إئكل" !

سنجد أن رواد المطاعم أكثر من رواد المكتبات, وأن التوازن مفقود في هذه الحالة بين العقل والبطن ! القليل من يبني عقله؛ ولذلك تظل مسألة النهضة والرقي والتمدن مسألة نخبوية مثالية؛ لأن مجتمعاتنا تجيد الأكل فقط، وحتى الأكل لا تجيده كممارسة فنية تليق بإنسان, مع أن رسول الإسلام علمنا كيف نأكل وكيف نشرب !

كما أن مجتمعاتنا تعاني من غياب الوعي بذاتها وقدراتها وتاريخها وحقيقتها وتراثها حتى، إنها مصدومة ومتأثرة وفاقدة الوعي؛ نتيجة وضعيتها المتخلفة, ونتيجة وضعية الغرب المتقدم ، راحت تلهث وراء الحداثة, ووراء نتاجات العقل الغربي, وتركت ذاتها في الضياع, وتنكرت لماضيها وتراثها وإرثها, ولم تعد لتصحح وتنقح وتستفيد وتتفاعل بشكل ايجابي مع تراثها ومع الآخر .

نحن قادرون على تحقيق النهضة، لكن الإحساس بالعجز الفردي هو نتيجة منطقية للإحساس بالعجز الاجتماعي؛ نتيجة أن مجتمعاتنا مقموعة وممنوعة ومجبرة؛ ولذلك فإن الإجبار يقضي على الفاعلية الاجتماعية, ويحول دون توليف المجتمع لذاته؛ كي يتقدم لينجز حريته أولا، ثم ينجز نهضته ثانيا، فالنهضة لا ترتكز إلا على قاعدة الحرية المنضبطة بقيم حقيقية تصون كرامة الإنسان وعقله وضميره .

كما أننا نحتاج إلى تفعيل الحوار فيما بيننا فهو آلية جوهرية في الممارسة الثقافية، يزيل التفكك الذي أصاب الحس الجماعي للمجتمع، ويحيي "جمالية معنى الأشياء" التي افتقدناها، إنه خطوة لمواجهة الإحباط واليأس، فنحن محكومون بالأمل .

سيرة الضوء

البداية ليست واضحةً الكتابةُ عن شيء محدد لم أفكر به أمر يجعلني غير قادرٍ على توقع النهاية.

كل شيء سيكون على ما يرام، فحين نكتب تأتي الكلمات دون تكلف أو استدعاء إنها جاهزة للانقذاف بلذة على صفحات الأوراق؛ لأن الهدف هو كتابة شيء يستحق الذكر, على أن بدايتي ستكون غير مرتبة أو متناسقة, وسيفتقر السرد إلى التماسك ربما, لكن بنية المعنى كفيلة بإيجاد ذلك التناسق المفقود بين المفردات.

يكبر المرء وتقل ذاكرته، يستنزف الحلم وتبقى حالة التعقل التي يحاول أن ينقل من خلالها خبراته وما راكمه من تجارب غدت بالنسبة له معرفة لا يمكن التنازل عنها، بل لابد من إخراجها على شكل كلمات تقرؤها الأجيال. كنت فيما مضى أشعر بأني رجل فاشل أو سيفشل في تحقيق أهدافه؛ لأني كنت أنظر إلى ذاتي كإنسان معزول عن كل أسباب النجاح والتفوق، لم أكن مرفهاً, وإنما كنت بسيطاً, انحدرت من أسرة متدينة متواضعة، كان جدي فلاحاً كبيراً، وكان أبي شخصا لا يتقن فن العيش مع الآخرين، غير أن الخالق منحني أُماً عظيمة هي التي دربتني على كيفية الحلم، وكيف يمكن أن أغدو إنساناً مهما في الحياة، فمنها تعلمت الصبر والصمود, ومنها ولد ضميري غضاً طرياً مكتظا بالحساسية والحياة، فحين كانت تعطيني بقايا طعام لِقِطَّةٍ ولدت تحت حطب

كانت تأتي به من جبل "العابل", و"القفيع", وتقول لي: يا ابني خذ هذه للبسم وعيالها "قطة": "أجر, ما يضيع عند الله شيء".

أدركت أيَّ مشاعرٍ تختزنها تلك الطيبة، وأيَّ نبلٍ تنطوي عليه تلك المرأة التي عانت المتاعب من القريب والبعيد, وفقدت كل شيء لتبقى لنا نحن, ولتربي فينا مطامح الرجال الذين كانت تحلم بأن تراهم يوما كما تتمنى.

يمارس الإنسان حياته دون ترتيب سابق ولا خطة معدة، يولد وفي ذاته حافز يدفعه نحو تحقيق ذاته ووجوده بشكل أفضل، لكن الحلم فنٌ آخر، فالحافز الذي بلا حلم كطائرة مندفعة في السماء بلا غاية, يفتقر قائدها إلى أساليب القيادة والتوجيه؛ وبالتالي بلا خارطة تهديه نحو وجهته التي يريد حتى ينفد الوقود أو تصطدم فتنفجر أو تسقط، ومن الأحلام تولد الأهداف وعلى ضوء الأهداف يتحرك المرء ليحقق أحلامه.

منذ زمن وأنا أتوق إلى إشباع رغبتي في كل شيء وتحقيق أحلامي، لكني لم أستطع، ليس لدي المال لفعل كل ما يحلو لي ولو بطرق مشروعة، ودائما كنت أتعمد ألا أبالغ في الميل نحو ما يأباه الله وينبذه المجتمع، بالإضافة إلى إحساسي بانعكاسات الممارسات السلبية على كرامتي الخاصة وأشيائي التي أرفض أن يتعداها أحدُ أو يشاركني فيها.

ميالا للجمال والحب، وأرفض مظاهر الترف المبالغ فيه, وأفضل عيش حياتي بمستوى جيد، إلا أن ذلك كان يفقدني الشعور بمن حولي، أو حتى بجمال الحياة ذاتها.

مرت عليّ أزمنة بائسة منذ ميلادي الأول، ولازال الإحساس بالحرمان يلاحقني, وكلما رأيت شيئا جميلا تمنيت امتلاكه أو الظفر بشيء منه.

إن مسألة أن تشبع حرمانك وتروي توقك إلى معانقة الجمال: لهي من أعقد المسائل في الحياة اليوم؛ لأن ما تراه تقديرا قدريا لك ليس سوى حالة من عدم امتلاكك لما يجعل ذلك القدر ممكنا.

إن علينا أن نكافح من أجل تحقيق مستقبل أفضل لنا دائما, يقول ماركيز في روايته: "الحب في زمن الكوليرا": "البشر لا يولدون دوما يوم تلدهم أمهاتهم..وإنما تجبرهم الحياة على ولادة أنفسهم بأنفسهم ثانية ولمرات عديدة".

قد يعجز المرء في حياتنا هذه أن يجد بعض أساسياته الضرورية, لقد غدت الأحلام ترفا يستهلك ذاكرتنا وأوقاتنا أكثر من أي شيء آخر, وكلما تجازونا الزمن أحسسنا بالحقد على أولئك الذين ملئت خزائنهم بالأموال, وحققوا معدلاتٍ أعلى في إنجاز ما يتمنونه, فيما نحن نعاني العجز الدفين.

إن الفقر عجز، وهو داء مجتمعاتنا، إنه يحول حتى دون سلامة استقامتنا ويشعرنا بالهوان؛ لأن الدونية التي تخلقها تلك الحالة تضاعف من إحساسنا بضرورة الكفاح من أجل الحرية والعدالة والكرامة والتضحية, من أجل عالم إنساني يقترب من مثالية كل فلسفات الأرض وأديانها التي نادت بالإخاء الإنساني وبالحرية والعدالة والمساواة وصون كرامة الإنسان؛ أي إنسان.

فالتوازنات الاجتماعية هي وليدة التحدي بين الكينونة الجماعية الحرة الواعية، والكينونة الفردية المستبدة التي تمارس القمع والاضطهاد والإقصاء، وتتدرع بالعسكر والسلاح؛ كي ترهب ذلك المجتمع، لكن المجتمع المتفوق بقدرته

على تنظيم شتاته في نضاله لا يمكن أن يرهب، بل يزداد إصراراً على مواصلة نهجه النضالي، وكلما تماسك وتعاضد أخفت صوت الغريزة في أعماقه؛ ليعلو صوت الحرية، وبناء حياة جديدة أخرى تغاير ما هو عليه.

والحقيقة أن الأوطان- كي تُبنى - تحتاج إلى عقولٍ متفتحةٍ ومستوعبةٍ لحركة الحياة وتشكلات القوة فيها ومعادلاتها، ويحتاج التغيير إلى شعوب متحررة من الماضي المحبط؛ كي تنطلق وتستفيد من المشرق في تاريخها كذاكرة تدفعها نحو الإيمان بذاتها وإمكانياتها.

إن دَفْقَ الحياة مستمر، وهي سائرة إلى الأمام لا تلفت إلى العاجزين, ولا تعير اليائسين أدنى التفاتةٍ، ويتصدرها من يجيد فن الكفاح والنضال بوعي وسلم وحكمة، يعارك العوائق ببصيرة نافذة، ويجلو غبار التحديات بإبداع يدرك كيف يتجاوز العوائق وعوالق ما يعترض المسار، ولأننا اليوم على حافة ما يقال بأنه انهيار, نحتاج إلى مزيد من النضال الذي يتلازم مع إنتاج البدائل الراقية، التي يرقى ذووها إلى مستوى الأهلية القيادية في مختلف المجالات, نحتاج إلى أن نكون عند مستوى ما نأمل منه وما نرجوه وما نحلم به؛ لذا يجب على القوى السياسية أن تعي دورها في تفعيل الشعب ورفعه إلى مستوى الإدراك الحقيقي لمشاكله والتحديات المنتصبة أمام مستقبله ومستقبل أجياله، تسييسه بوعي، وتهذيب سلوكه بعقلانية تكسر يد القوة التي تحاول جعله عند حدودٍ يراد له أن يظل متجمدا فيها, لا يتجاوزها إلى أفق أفضل وأجمل.

هذا الكلام كلام نظري، لكنه بسيط يستوعبه من يدرك كيف أن بداية الألف ميل تبدأ بخطوة، ومع الاستمرار تنفتح آفاق جديدة وتغييرات خلاقة في الثقافة والفكر والسلوك، فنحن شعب حي يتفاعل مع الجديد، صحيح أنه قد يعاني من محاولة ارتداد في الوعي؛ نتيجة أسباب مختلفة، لكن المناهضة المستمرة تمكنه من تجاوز ذلك، وتسدي إليه القدرة على تكوين شامل يختلف عن القديم، وتجعله يصبو نحو مثال أجمل، فالمثل ليست شيئا بعيد المنال؛ خصوصا حين تكون واقعية وليست غيبية، أي: أن المثال الذي كنا نحلم به في مرحلة ما، يصبح واقعا؛ لتخلق رغبة جديدة لدى الشعب في تطور أرقى, وهكذا في "ديالكتيك" مستمر لا يعرف الانقطاع إلا زمنا محددا، ليعاود بعدها التحليق من جديد، مع ديمومة للحراك الثقافي أثناء ذلك يحفزه لوضع آخر، ويتجاوز به راهنية الإنجاز المعاش إلى إنجاز آخر.

إن الشعوب الحية لا تعرف الجمود، بل الحركة بمختلف أشكالها؛ لأن الجمود يراكم في ثناياه تناقضات سلبية وليست ايجابية, فهو بيئة خصبة لتنامي التخلف والارتداد الذي يشكل عقبة أخرى أمام وثبة حضارية أخرى، فالنقلة النوعية الكيفية: هي وليدة ذلك التفاعل الإيجابي للنقاش والحوار, وتبادل وجهات النظر, وتجسيد الرؤى الأكثر نفعا وفاعلية؛ بعيدا عن لغة الإقصاء، في حل المشاكل وإنتاج القيم التي تغدو فضيلة العصر؛ لأنه لكل عصر فضائله كما يقال.

فإرادة الإنسان لا تنتقل من طور القوة داخل النفس إلى طور الفعل التاريخي خارج النفس إلا إذا انبثقت من أحشاء التحدي لإرادات بشرية أُخرى مضادة ومناوئة ، واستطاعت التغلب عليها جميعاً والنفاذ من بينها منتصرة، بشرط أن لا تصطدم بإرادة " الله " المتمثلة بسننه ونواميسه المبثوثة في حركة الكون لأنها غالبة لا محالة ، وفوق ذلك كله لابد أن تكون على وفاقٍ مع مشيئةِ القدر، التي هي فوق كل مشيئة.

والحقيقة أن لديَ مَيلًا لاكتشاف كوامني وقدراتي, ويحركني إحساس بأهمية ما سأكتبه ولو كان قليلا كتجربة لجيل سوف يقرؤني بإعجاب, ويتحدث عني بإجلال؛ ربما !!

لست مغرورا, فالحديث عن الذات هو حديث عن البساطة التي استطاعت أن تنحت لها مكانا في الذاكرة والوعي، وربما كان علي أن أبقى راعي حمارة, أو"مبزغ" قات غبي لا يفقه من الحياة سوى السباق لإنتاج أكبر عدد من "رُبط القات".

يجاهد واقعه المر، ولقد واجهت الجوع والتشرد والبرد والمخاوف والقسوة فتًى, وكانت دائمًا تؤرقني كرامتي الذاتية؛ لذلك بقيت متحفزا بكل حواسي أدافع عن وجودي الصغير, وأقاتل بقوة عن عرين كرامتي، وكان القلم بمثابة أحد أدوات القوة التي استطعت الإمساك بها والهيمنة على حركتها.

تماماً كشيء غائر لا أميل للكلمات اللطيفة, ولا أبحث عن ذاتي في قلب أحد, وأنا دائمًا أمضي دون أن يلحظني أحد, ودون أن أنتمي لأَحَد، سوى قيم وقلم وموقف قوي لا يلين في مواجهة ما اعتقد زيفه وبطلانه.

كنت أكتب, وحين أكتب ينتابني الشعور بسمو ذاتي يمكن أن يدفعني لفعل شيءٍ في الحياة, أو ترك أثرٍ في الكون، العظماء يولدون من بين ركام القسوة, ومن تحت أنقاض الألم والمعاناة والقهر, غالبا يترعرع الضمير في بيئة تفتقر إلى أبسط مطالب الحياة الإنسانية؛ ولذلك يولد بعض أبناء المترفين أغبياء وبغالاً تصلح لحمل الأثقال، لكنها لا تصلح لحمل الرسالة والهم، كنت أزدري دائما المظاهر المنطوية على فراغ في الروح والضمير والعقل، وكانت الكلمة القوية تزرع فيّ صلابة داخلية, وتحصد اليأس من داخلي "إن جيلا زرعته يد الله لن تحصده يد البشر" هكذا قال سيد قطب وهو يواجه قسوة السجن وسوط الجلاد، وغباء الساسة الذين كانت تنتعلهم قوى الإذلال العالمي.

لم يكن انتمائي الفكري والسياسي إلى حركة الإخوان المسلمين عبثيا، أنا لا أستطيع أن أثق بفكرة لا تحترم الإنسان, ولا ترعى ضميره, ولا تصون كرامته، كان اختياري للإخوان اختيارا فطريا لشاب يافع اطمأن في بداية حياته المراهقة إلى سلامة صدر أتباع هذه الحركة, وجمال منطقهم وعفوية علاقاتهم ووفائها وصدقها، وقبل ذلك جمال الفكرة وسلامتها, وسمو مقاصدها وأهدافها.

بالتأكيد لن يفرح من يعادون الإخوان بهذه الكلمات؛ لأنهم لا يريدون سوى أن تحقر ذويها, وأن تكيل الكذب عليهم, وأن تقدح فيهم، ولقد تمسكت بانتمائي إلى الإخوان منذ عام ١٩٩٥م، كنت أدرك أن هؤلاء لا يقدمون للناس قوتا, بل يرسمون ميقات الوعد في أحداق الشوق لمستقبل

أجمل سيأتي، ويحملون مشروع نهضة ستكابد أزمنة من الكيد والمؤامرات والعراقيل, وسيجمع السحرة كيدهم ضد هؤلاء في كل مكان، لكني كنت أدرك أيضا أن التحديات سوف تعيد تشكيلهم بطريقة تجعلهم أكثر قدرة على التجذر والتجدد والخصب والنماء، وكلما واجهتْ هؤلاء الأفذاذَ الأنقياءَ عراقيلُ, مَنَحَتْهم رؤًى جديدةً تبصرهم بالكيفية التي يستطيعون من خلالها تكثيف وجودهم, وتحقيق فاعلية تمكينهم في واقع الحياة.

منذ نعومة أظافري مارستُ الكتابة كوسيلة لمواجهة الواقع وقسوته وتحدياته والتغلب على أشكال الظلم والتمايز القائمة فيه, وانكببت أقرأ في الأدب والفكر والسياسة والفلسفة, نسفت في سنوات الجامعة المسلمات والثوابت, وبدأت من جديد رحلة البحث عن الحقيقة، انتميت إلى الحزب الاشتراكي فترة لا تقل عن سنتين تقريبا, وسبرت أغوار الفكر والفلسفة والممارسة، وعدت كما أزعم بنتائج علمية وواقعية, واكتشفت أن الأزمة الذاتية التي يعيشها إنسان الحزب ناتجة عن غياب روح البحث العلمي, وهي أزمة نابعة من ذات مشوشة؛ نتيجةَ فكرٍ ماديٍ محضٍ معادٍ لكل ما هو غيبي لا تصل إليه حواسهم ومداركهم العلمية القاصرة.

كنت شغوفا بالقراءة والتفكير والكتابة, لا أمل من القلم, ولا أشبع من رغبة تعزيز عقلي بالمعرفة وتزويده بما يجعله أهلا لإدراك الأحداث والوقائع والتحديات وحركة الصراعات المختلفة ومنابع توهجها واشتعالها.

غالبا لا شيء يدفعك إلى الكتابة سوى الشعور بالمسؤولية تجاه ما تجد في واقعك من أخطاء ومآسٍ؛ محاولا من خلالها قدر جهدك التخفيف من

وطأتها, وتحجيم تمددها الطاغي الذي يكتسح الحياة العامة برمتها.. تستعيد مثاليتك المفقودة من خلالها, وتحاول تأطير هذا التمدد في حيز الحدود المرسومة للمثال.

والكتابة فعل مقاومة حي, ساحته العقل, والتفكير منشأ الفعل المتجلي في الواقع، فالحرب كما يقول أحد المفكرين "كانت تدور هناك في العقل قبل الميدان"؛ ولهذا فالكتابة مشروع صدام, والتقاء افتراق وائتلاف، تحدد الملامح, وتشكل التوقعات والخطوط الأولى لمستقبل أي أمة.

ثم إن ترف الكتابة يبدأ حين يفقد الكاتب الهدف, ويضيع في دوامة التباهي والاستعراض الممل.

إن الكتابة التحام بالتفاصيل, وتحديق في غور الحياة، وترسُّم لأدق الخفي الأخفى في كل جوانبها؛ لأنها عملية استجلاء للكوامن النفسية والاجتماعية، واسترخاء التوتر الذي تنشئه الحاجة إلى البوح والتعبير عن احتقانات الداخل المليء بالصراع والكبت...تفريغٌ لاعتمالات الذات.. ومسرب لعبور الضوء إلى العميق المعتم الذي يكتنفه الغموض.

راعي حمارة جده "بشذان" أضحى قادراً على سبر الأغوار واستكشاف الأعماق والنفاذ إلى منابع الأشياء ومنشئها، الطفل الذي كان يمرض في "دكة" بيتهم القديم تحرر من رعي الحمير ليصبح راعيا للإنسان وبالذات عقله ويقينه, أضحى يدافع عن الفكر والمعرفة, ويؤكد أن الحقيقة لا تنطمر وإن شوش الزيف نصاعتها, وهي تبقى دائما تنثر وهجها في كل مكان يلمحها القادر على الرؤية المتحرر من زبد الأوهام وغثائيتها، كان رداد ولازال شاباً شغوفاً

بالجوهر, يكره الأشكال والتماثيل, ويتجاوز المظاهر الفارغة, وينفذ إلى القلب, وهناك يمارس هواية التنقيب والبحث والتقليب، ولقد سخر منه الكثير, لكنه كان لا يتأثر بسخريتهم, فالباحث عن الحقيقة تجده واثقا من ذاته وعزمه ورؤيته واقتداره, إنه يدرك أن الساخر غبي لا يستطيع أن يرى سوى القشرة الزائفة التي تحجب الحقيقة.

ذات يوم قالت له أمه: يا بني بإمكانك أن تصبح شخصاً عظيما, بإمكانك أن تترك أثرا في الحياة، أن تفعل شيئا يبقيك في الذاكرة! الفارغون يا بني ومن لا يثقون بذواتهم يصنعون تماثيل من حجر؛ لأنهم يدركون أن الناس سينسونهم؛ ولذلك نحتوا صورهم على شكل تماثيل. أما الواثقون من أنفسهم لا يفعلون ذلك خشية نسيانهم !!

أدركت المغزى من قول أمي، الأرض لا تحلم لأن جاذبيتها فقدت الإحساس بالسعادة، إن الإنسان بلا ضمير كالتمثال بلا حياة أو روح، إن آثارك هي الباقية؛ آثار الخير, آثار الكلمة, آثار الفعل النافع للناس، من هنا رحت أشق بقلمي غمار التحديات, وأتحدى الزيف والظلم والجبروت, وأنثر نور الحبر بقوة, وأحاول قدر الإمكان تجهيز الوعي وتفتيق الأمل, وحشد الطاقات من أجل تحقيق الانطلاقة الكبرى في مسار استعادة فاعليتنا الحضارية وروحنا الإنسانية التي صنعت التاريخ وحققت التوازن الإنساني.

إن المثقف صوت أمته وضميرها وهو روحها المختزنة في ذاكرتها وهو الذي يعيد اكتشاف الحقائق وتفكيك ما انبهم من لعبة الصراع؛ ليضع المجتمع أمام مسؤوليته, وأمام ما يواجه من تحديات وعقبات تحول دون تحقيق رغبته في

الحياة الحرة, "ينبغي أن يمتلك بصيرة قادرة على امتصاص الوحدات المعرفية المختلفة واستيعابها وتمثلها وتحويلها إلى وحدة كلية واحدة يتدفق بها لسان قلمه".

سنوات طفولتي الأولى بائسة لا أذكر بأني لعبت أو امتلكت لعبة، حروب التشطير لم تمنحنا الإحساس بالأمان؛ لأن ميلادي كان في أزمنة الحرب وليس في أزمنة الحب، وكان التشرد قدرا لابد منه.

"الجروف" هي المأوى الواقي من اندفاع الرصاص وقذائف الموت المنطلقة من أفواه المدافع بسرعة جنونية بحثا عن جسد تنهشه وتبعثره. قالت أمي: إنها كانت سنوات خوف تنفجر الأرض من تحت قدميك دون أن تشعر, الكثير قتل بريئاً, تصفيات ومكائد ومؤامرات, كانت الشيوعية آنذاك في قمة تمكنها جنوب البلاد, وكان معتنقو الفكر الاشتراكي يؤمنون بأن ما يفعلونه واجب مقدس, وأنهم يفتقون الصراع الطبقي الكامن الذي سيأتي معه تلقائيا بالنظام الاشتراكي, كانت فكرة جنونية تراود عقولهم غير مدركين أن الواقع الاجتماعي اليمني ليس مهيئا لتقبل أفكار تدعي العلمية, وتسعى إلى تأسيس الافتراق والتناحر، وتنبذ معتقداته التي تملأ ضميره ووجدانه, وتلهم قدرته على الحياة السوية، وتؤسس لعلاقات اجتماعية يسودها التعاون والمودة وفعل الخير.

تدرجت في مسالك الحياة دون ضجيج، حتى وصلت إلى هنا، ولم يشعر بي أحد !

وفي كل يوم أستيقظ لأعرِف نفسي أكثر، وفي كل يوم أنكر من ذاتي أشياء وأشياء، فتارة أتمرد عليها, وأخرى أتقبلها بسعادة وحبور.

أشك في أن أحدا ما يمكنه أن يمسك بي, ويحصرني ضمن فهمٍ أو معرفة، فأنا ذاتي لم أعرف نفسي بعد, وما زلت أنقب في مناجم قلبي بحثا عن أبعاد ما تزال مجهولة, ففي كل يوم أتغير, وأقرر أشياء كثيرة, وأرسم آفاقا جديدة لغدي .

بارع في التقاط النسيمات الهادئة التي تعبر عند الفجر، كل يوم يستيقظ على صوت الأذان, وكل يوم ينام على تقنية الوضوء التي تعمل على تنقية الروح من عوالق الكفاح اليومي المستمر .

منذ أن تعلم الكثير أحاول أن يمارس التأثير على من حولي كي يدفعهم إلى عملية تغيير الواقع، رفض الاكتفاء بالتفسير العاجز, فما لم يقد التفسير نحو التغيير تبقى العملية نظرية يزداد ضررها حتى تُراكِم اليأس, وتسبغ حضورها في الوعي عجزاً مزمناً.

منذ أن وجدت ذاتي بعد بضع سنين من شهقة ميلادي الأول عام ١٩٨٠م، رحت أصيغ شخصيتي الخاصة منطويا تارة ومندمجا في المجتمع تارة أخرى, وكنت غالبا بين ذلك قواما .

وكنت أتعمق في فهم الحياة, وإدراك ماهيتها وأبعادها وأحداثها، كان إحساسي بالحياة كبيرا، ورغم أن قدرتي على الحياة وئدت في وقت كنت أتشكل فيه كبرعم يتفتق في جوف زهرة يشتهي الحياة، مَثَّلَ مجيءُ قريب لي "والدي"، بعد غياب طويل دام جنوب الوطن ٩ سنوات معضلةً كبرى؛

إذ أن تنشئتي الأولى الفطرية واجهت تربية الانحراف التي مارسها والتي حاولت جرفي بعيدا عن أرضيتي الروحية البسيطة والعميقة التي تربيت عليها، كان علي أن أواجه أقداري سنوات المراهقة منفردا وكان إحساسي بمعية الله كبيراً، على هذا النحو رحت أصيغ وجودي رغم كل الاستخفاف والسخرية والإسفاف في الإقصاء، وكنت قارئاً نهماً يهضم كل ما يقرأ تارة بوعي, وأخرى بدون وعي, وكنت حين تستعصي الكلمة أظل أبحث عن "شيفرة" إدراك لها وهكذا رحت أقرأ .

سنوات مراهقتي لم يهتم بي أحد، مرضت, تألمت، عانيت الوحدة، جعت، عطشت، بردت، يتمت, ولازال والداي موجودين، فالتربية الاشتراكية الشيوعية لم تصنع من قلب أبي سوى صخرة صلبة تتحطم عليها كل أشكال الاستعطاف والحنان, كان يبدو كجندي "إسبارطي قديم"، كانت القسوة هي التي تواجهني, وكان قدري أن أعيش يتيما !!

الله وحده من كان لا يفارق عقلي وقلبي، كنت أُدرك أن الحياة قاسية وأنها لن تكون على النحو الذي نتمناه، كان يقيني كبيرا رغم كل الآلام، حتى اللحظة لازلت على يقين كبير أن الله لن يضيعني, ولا زلت أتمسك بحكمة أمي البسيطة التي كانت تقول لي: "يا ابني الله ما يضيعش حمولة بخلاء".

كان صباح الريف أيام دراستي الابتدائية والإعدادية جميلا, يداعب خيالي بنقائه وهدوئه وسلاسة نسيمه ورقته العابرة، وكان الفجر يحمل كل يوم معه قصة جديدة لمنطقة تستلقي بهدوء بين جبال تضمها فيما تشقها طريق السيارات الممتدة من مدينة "إب" إلى مديرية "قعطبة" نصفين، لم

أكن أُجِد بعد شيئا, لكن جدي أوكل لي رعي دابته البيضاء الكبيرة التي كانت بمثابة "سيارة مرسيديس" غالية الثمن كانت مهمة تملؤني خجلا وتثير حساسيتي، فأمي كانت تقول لي: سوف تدخل المدرسة يا ابني, وتتعلم وتصبح كصالح قاسم الجنيد وعبد الله أخيه, لم أكن اعرف من هؤلاء, لكنهم كانوا من بني عمومتها من قبيلتها, وكان الأول سياسيا معروفا ونيابيا محنكاً انتمى إلى الإخوان المسلمين منذ بواكير شبابه, لكنه تنكر لهم فيما بعد ليدخل لعبة الاستقطابات والثراء والفلل, وكانت له آراء سياسية جريئة ضد نظام الرئيس اليمني السابق علي عبد الله صالح الذي قتلته جماعة الحوثي التابعة لإيران بقصره الفخم بصنعاء بتاريخ ٤ديسمبر ٢٠١٧م بعد أن تحالف معها ضد الثورة الشبابية الشعبية السلمية التي طالبت برحيله سلميا في ١١فبراير ٢٠١١م لينقلب عليها بعد عودة من السعودية إثر تلقيه العلاج بعد حادثة اغتياله في مسجد قصره التي يرجح الكثير أن ابنه أحمد الذي يحضى بدعم أمريكي خليجي سعودي إماراتي يقف وراءها من أجل استلام السلطة ومباشرة قمع ثورة الشباب حتى يتم ضرب اخر تفاعلات ثورات الربيع العربي في المنطقة والذي تقف وراء الانقلاب عليه دول الخليج وخصوصا السعودية والإمارات فيما تقف دولة قطر الى جانب خيار الشعوب العربية وثوراتها، ليمكن صالح بذلك مليشيا الحوثي التابعة لإيران من مؤسسات الدولة وسلاح الجيش في ٢١سبتمبر ٢٠١٤م ، وهذه الآّراء الجريئة هي التي أدت إلى اغتيال -صالح الجنيد -كما يشاع من قبل الرئيس صالح لحادثة اغتياله بحادث مروري مؤسف عام ٢٠٠٨م حين كان محافظا

لمحافظة الضالع برفقة الشيخ التعزي سلطان البركاني, فيما عبدالله الجنيدكان يقود طائرة حربية وقاعدة دفاع جوي في صنعاء, وهو رجل يمتاز بتدينه والتظاهر بالبلادة؛ حفاظاً على موقعه المهم .

وحين جاء وقت دخولي المدرسة في سن السادسة تقريبا أراد جدي منعي من ذلك؛ بحجة التفرغ لرعي حمارته المهمة, لكن والدتي وقفت أمامه بقوة قائلة: لا, يا عم لازم عيالي يدرسون ويتعلمون ويقعون رجال، لم أكن أكره جدي فقد كان جدي بمثابة أبي الذي هرب عام ١٩٨٢ مع جبهة التخريب جنوب البلاد, كانت الجبهة مكونة من لفيف من الاشتراكيين الأغبياء المؤمنين بالصراع الطبقي بشكل تجريدي مخيف, وكانوا يسمون أنفسهم "الجبهة الوطنية", لكن الحقائق أنها لم تكن وطنية فقد زرعت مئات الآلاف من الألغام التي لازالت تنفجر حتى اليوم, وخلفت الكثير من البكاء والأحزان؛ لأنها كانت تعتبر القتل فلسفة تؤدي إلى تصفية الإقطاع والبرجوازيين, وتمهد لواقع اشتراكي تسوده العدالة الاجتماعية، لكن الأمر لم يكن كذلك ولم يتحقق, فنحن لسنا في "روسيا", وظروفنا الاجتماعية والإنسانية والبيئية لا تقبل الأفكار التي تحارب قيم الحرية والضمير والايمان الواعي بالغيب, وتستبعد الله من حركة التاريخ والإنسان والحياة.

ففي الجنوب اليمني قبل الوحدة في حقبة السبعينيات اختصر الحزب كما كانت توضح خطابات قادته مراحل التحول التاريخي؛ ليتجاوز مرحلة الرأسمالية, ويثور طبقة "البروليتاريا" في مرحلة ما قبل الرأسمالية, قسرا على الرغم من أنف "ماركس" و"لينين", فالمفروض حسب الجدل الماركسي أن

هذه الطبقة لا توجد إلا في مرحلة الرأسمالية؛ لتكون لها قضية تثور من أجلها .

وعلى هذا الفهم الافتراضي للواقع الاجتماعي دخل الحزب الاشتراكي ذو النزعة العلمية الماركسية في الجنوب معركة فعلية لتغيير بنية المجتمع الروحية والمادية, وقد وضع لهذه المعركة موازنات مبنية على أصول منهج التفكير الماركسي كأصول معرفية تحدد منهجه وخططه للصراع وصياغة الواقع الاجتماعي, فكانت قاعدة الانطلاق في هذه المعركة هي: مبدأ الصراع الطبقي, وكان الهدف الأساسي من هذه المعركة هو تحطيم بنية المجتمع وهذا ما مارسه رغم ضعفه شمال اليمن اليوم من خلال استخدام الحركة "الحوثية"؛ لتؤدي هذه المهمة التي يعتقد واهما أنها ستنجح في تحقيق أهدافه التي يمهد لها من خلال تغذية الصراع والانخراط فيه بشكل مباشر وغير مباشر, ومن خلال محاولة منح "الحوثي" مشروعية نضالية شعبية, وتبني خطابه السياسي إعلاميا, والتخطيط له وهندسة مواقفه التي لن تنطلي بالتأكيد على الشعب اليمني .

والحقيقة أن الحزب في جنوب البلاد واجه الشعب بأيدلوجية مادية لا تتكافأ بضعفها وهزالتها مع أيديولوجية الشعب التي تتركب من قوتين متحدتين في كيان واحد هما القوة الروحية والقوة المادية، فتحولت حركته وارتدت إلى داخل كيانه الحزبي؛ لتنتج ظاهرة من الجدل تحاول تفسير فشل محاولاتهم في تثبيت معطيات الإلحاد كنظرية علمية تقضي على البعد الغيبي في وجدان الشعب وعقله وضميره، لكن محاولة تفسير هذه الظاهرة تقوم أساساً على

منهج تفكيره الخاطئ فكان يُقوِّم ويثمن مردود حركته في هذا المجال العقائدي بالمقارنة إلى ما حققه في مجال التصفيات الجسدية وفي مجالات الإرهاب الفكري وإلى ما حققه من إجراءات سطحية في المجال الإداري والاقتصادي, فكان هذا التثمين منشأ الخطأ في التفسير والتحليل.

وفي كل مرة كان يرجع فيها التنظيم الماركسي الاشتراكي لمراجعة مردوده في الصراع الفكري والعقائدي يخرج بإجراء أكثر شدة في حصار الأفكار والتجارب البشرية التي تعارض خطه الفكري والفلسفي, وأكثر تمسكا بأيديولوجية الحزب الماركسية، فتضخم وتعمق هذا الاتجاه التعصبي الفكري في عقلية أعضائه, وأدى إلى تشكيل نفسية المفاضلة الجذرية بين الحزب وبين كل الفكر الإنساني القديم والمعاصر .

منذ طفولتي بدأت مرحلة الحب, وبدأ ينتابني في سنوات الابتدائية الإحساس بالميل لأنثى, كنت أحب فتاة قريبة لي, لكنها لم تكن تملك ذات أحاسيسي؛ لأنها ابنة تاجر كان في مقاييس قريتنا الصغيرة ثريا لا يمكن الاقتراب منه، حاولت أن أكتب لها كلمات جميلة كنت متقداً بالشوق لتحريك وجدانها, لكنها كانت معطوبة الوجدان تميل إلى المظاهر والأشكال, وتنظر إلى ذاتها كـ"سلطانة صغيرة مدللة", كنت أدرك أن كلماتي لن تترك أثراً في قلبها؛ لأنها تحب سماع موسيقى الدراهم وهو ما كنت أفتقر إليه تماما، كانت تؤلمني بلادتها الوجدانية, وكنت أدرك أن الأغبياء عادة ما يكونون أغنياء, وأنه لا فرق بين غني وغبي، فالثراء لا يدل على موهبة لديك في

الذكاء، مع أنها كانت تفتقر إلى ملامح جمالية حقيقية تجعلها حقا فتاة محبوبة
.

تزوجت من شاب والده مغترب في أمريكا, وحين لاحظت والدتها أنني أردت أن أعطيها رسالة عبر شقيقتي تعبر لها عن لواعج حبي قالت بلهجة حازمة وأنا انزل من الدرج بلهجتها: "للمه الأوراق يا ابني؟! والله أننا كنا نشتي ندي لكم واحدة, لكن هذا قدر, خلونا نطعم فلوس أميركا"! عندها أدركت كم أن فلسفة المال وحده هي الطاغية على هذه الأسرة التي تفتقر إلى قيم حقيقية تصون وعيها وضميرها, وقررت أن اتركها لتتذوق فلوس أميركا !!

كلٌّ رحل في طريقة، وكان علي أن أشق طريقي منذ البداية, كنت لا استطيع النوم كثيرا من الأيام أفكر في المآلات التي سأصل إليها, وكان يعذبني هاجس المستقبل وهاجس الوحدة, فأنْ تحيا مجردا من كل سبب يعينك على الحياة وتحقيق أحلامك شيءٌ مؤلم, وأن تنطوي على نبل جسور يملأ روحك وإنسانية تعذبك حين ترى مواجع الآخرين وبؤسهم ثم لا تستطيع فعل شيء من أجلهم أمرٌ مؤلم، كان يملؤني الإحساس بالحماس وبالعجز أيضا, وكانت تستوطنني مشاعر الأمل تارة واليأس تارة أخرى، لكن أمي كانت تغذي طاقة الأمل لدي ببساطتها وحسن تذكيرها لي بأن الله لن يضيع إنسان توكل عليه واعتمد, وكانت تقول: يا ابني قَعْ رجّال, ادرس وكمل دراستك لا تجلس هنا بالذنبة وتقع زيهم مقوت - و"الذنبة" هي قريتي - وتردد المثل المشهور في المنطقة: "الله يا ابني ما يضيعش حمولة بخلاء". كانت هذه القيم الإيمانية البسيطة تعيد شحني بالأمل كلما بددته محاولات

التكوين في زمن قاس لا يرحم زمن ينظر ذووه إلى ما تحمل جيوبك ويديك وما يكسو جسمك وتنتعله قدماك, وليس إلى ما يحمله عقلك وقلبك وضميرك, كافحت وكنت أيام العطل الدراسية أتوجه إلى مناطق قريبة من منطقتنا, ومنها "رباط السلامي" بلدتي الأصل وأعمل في "تبزيغ" القات, وكنت أمكث عند أقرباء نهبوا أرضنا, واستغلوا طيبة جدي استغلالا وسخاً, وزوَّروا بصائر ووثائق بيع أرضه لهم، أنانيون جدا لا تستطيع أن تتعايش معهم إلا إذا تنازلت عن حقك, وأبديت قدرا من الرضا بكونك لا تريد أرضا وأن جدك باع لهم فعلا .

الكتابة كانت بالنسبة لي حياة وعنصرا من عناصر القوة حين تجد أنك عاجز عن مواجهة واقعك المليء بحقائق موجعة ومصالح تنسج على ضوئها العلاقات الإنسانية, وتكون غير مؤهل لدخول عالم الأغنياء والأغبياء والوجهاء والباذخين المغفلين عليك أن تنمي في ذاتك مواهب القوة القادرة على فرضك في الحياة الإنسانية ولقد كانت الكلمة هي أداتي القوية في المواجهة والوخز في تحريك الوجدان وتشكيل الذاكرة في ترك أثرٍ طيبٍ وآخر موجع وفي شد الانتباه إليَّ وعدم تجاهلي كشخص يكتب أشياء مهمة, وأخرى موجعة, وثالثة جميلة تفتق في الذات أحاسيس الجمال والسمو، انكببت على القراءة المستمرة, وكنت لا ادع شيئا إلا وقرأته وأحاول فهمه, وكانت الكلمات القوية تتحول في داخلي إلى طاقة أنشحن بها, وكانت بعض المقولات تمنحني الثقة والأمل والجرأة والاقتحام كمقولة سيد قطب: "من آلامنا تولد آمالنا, والرجال تصنعهم المحن, وساعة الفجر الوليد تولد من أشد ظلمة في الليالي",

ومقولة الشهيد حسن البنا: "أحلام اليوم حقائق الغد". كنت متأثرا بأفكار هؤلاء الأفذاذ, وكنت معهم أبدأ في تلمس طريقي نحو الخروج من حالة التيه على المستوى الفكري, والقيمي, والرؤيوي .

لم أكن أثق كثيرا في الأشخاص الذين يتحدثون عن الإنسانية دون أي منطلق فلسفي واضح لهذه الكلمة؛ لأن المعنى الإنساني غالبا كامن فيما يعتقده الإنسان, وما لم تكن المنطلقات العقدية والفلسفية واضحة وتحمل توليفة من القيم الحقيقية الثابتة التي تصون الإنسان وكرامته حقا دون الحديث الفارغ عن هذه الكلمة, فإنه لا يمكن الوثوق بها مطلقا؛ ولذلك وجدت بالقراءة والتجربة والممارسة الواقعية من خلال الانخراط في المجتمع وتشكيلاته السياسية والإدراك الروحي أن الإسلام يختزن المعنى الإنساني الأرقى, وتعمل قيمه على إحياء الضمير وتنمية الميول الفطرية النبيلة الكامنة فيه وتحريره من كل إشكال الضعة والضعف والهوان والإحساس بالغبن والبؤس, كما أن شعائره تعمل باستمرار على تنمية الاستشعارات الراقية التي تجعل الشعور النقي موصولا بحب الآخرين والإحساس بهم بصدق وبدون مواربة أو تكلف واستعلاء، وأنه لا يمكن الحديث عن الإنسانية دون معرفة جذورها الفلسفية وأصولها المعرفية التي تنمي في ذات الإنساني قيم النبل والخير والرحمة والمحبة.

حتى عملية الصراع على المصالح تختزن بعدا أيدلوجيا وفلسفيا، فمن يقول لك: انتهى صراع لأيديولوجيا؛ إما أنه يخدعك, أو أنه مغفل؛ لأنه حتى

المصالح والصراع عليها تقف وراءها فكرة أيدلوجية وفلسفةٌ مَّا، ولا يمكن فصل عملية صراع المصالح عن محركاتها الأساسية !!

فأنا مثلا أرى أن مصلحتي لا يمكن أن تتحقق إلا في إطار كلي يمنحها الاستقامة والمشروعية, وهذا الإطار الكلي يمثله الإسلام بكل قيمه ومعتقداته وتصوراته ورؤيته وتفسيره للحياة والصراع فيها؛ ولذلك مثلا أرفض أن أحصل على حقوقي وفق الفلسفة الاشتراكية, أو الرأسمالية الليبرالية؛ لأن هاتين الفلسفتين المنبثقتين من أصل فلسفي وفكري مادي تلزماني بممارسة حياتية تتفق مع رؤيتهما وهي تخالف فطرتي وقيمي وما أعتقده.. وهنا مكمن الصراع والتحدي .

إن الذين سخروا مني لم أكن لهم احتراماً, وإنما أكن لهم احتقاراً مبالغاً وربما شفقة أحيانا, وكانت سخريتي المضادة تتمثل في تجاهلهم, وكنت أدرك يوما أنهم سيندمون وسيهمس بعضهم في أذني بعض: "لقد تفوق علينا ببساطته, كنا نظنه من البساطة بحيث لا يمكن تجاوزنا, لكنه حقق انطلاقه ضوئية وسبقنا إلى حيث لم نكن نطمح أو نتوقع ! إنه إن لديه وعي متقدم ، إنه قوي فعلا ويباغتنا بقدرته المستمرة على فهم وإدراك ما عجزنا عنه فهمه وإدراكه".

حين تتألم عليك أن لا تفقد ضميرك وروحك, عليك أن تختبر صلابة نفسك وأن لا تسمح للحب الكامن فيك أن يستنزف في معارك العداوات السخيفة.

في حياتنا اليومية نخفي الكثير من حقيقتنا أو نخفي الكثير من جوانب شخصيتنا الحقيقية التي يتفاجأ بها الآخرون في أوقات معينة, وطالما كنا قادرين على إظهارها بشكل كامل, فنحن في هذه الحالة نتصف بالكثير من الشجاعة والقدرة على المصارحة والمكاشفة والإعلان عن رغباتنا؛ فضلاً عن مواقفنا التي تتسم بالإقدام والنبل والشهامة مع معارفنا؛ ولذلك حين تتألم تفقد طاقة الحب ويحاول الحقد ورغبة الانتقام أن يسيطرا على صفاء قلبك الأبيض, بالتأكيد لا بد أن تتألم حين يجرحك أحدهم أو يسخر منك لأنك إنسان، وعندئذ حاول أن يكون ألمك سببا لتمسكك بك, لا تفقد روحك بسهولة، نعم تغير إلى الأحسن, أضف إلى نفسك ما يجعلك أكثر قدرة على أن تكون أنت، أنت الذي بروحك أجبرت آخرين على إيلامك حتى ينالوا منها، لا تكن أنت أول من يتخلى عنها، بل قوها أضف إليها، ولا تبتعد عنها فتحاول أن تكون روحا أخرى شكلها ألمك .

ولا عجب أن الألم عندما تستطيع احتواءه داخلك عندما يفشل في أن يحولك إلى جندي مخلص أو أن يشكل روحك عندما تكون قادرا على أن تمنع نزيف حبك للآخرين, هنا وهنا فقط يتشكل، فيتحول إلى أمل يعيد ترتيب حروفه, فيصبح شراعا جديدا يأخذ روحك إلى أفق جديد يعبر بها إلى مناطق النور وبك إلى حيث تجد من يقدرك من يحاول أن يمنع عنك نوبات الألم الجديد، أن نسعى إلى أن نشكل ألمنا إلى أملنا، هذا هو النجاح, وذلك هو التفوق, وتلك هي المكانة العالية التي يعجز عن أن يصل إليها الكثير .

سألـتني أمـي يوما: يا بني كم يجدر بالمرء أن يعيش ليقطع مسافة بين الحلم والحلم وبين الحلم والواقع وبين الواقع والذاكرة ؟!

كان جوابي الصمت؛ لأن أمي خبيرة أحلام وحياة، عاشت الواقع وتماهت في تفاصيله, وحين كانت تظلم الحياة كانت تشعل الحلم في مُقل الليل لأقتبس من نـوره حين أكبر أجمل أحلامي .

كبرت وورثت عن أمي خاصيتي الصبر والثبات؛ بالإضافة إلى حسن الإعراض والتجاوز.. وورثت عنها أنقى أحلامي وآمالي، وربما كسر الزمن بقسوته قوتها, لكنها لم تستسلم, فحين أنجبتني رأيت في عينيها الإصرار العنيد, كانت تتحدى المصاعب؛ لتؤكد لها أن أحلامها لن تموت, بل تحققت بميلادي، ويوم أكون رجُلا يصنع الحياة والحرية ويدافع عن الحق ويهزم بقلمه الباطل المنتفش في ثكناته القاتلة .

طفولتي كانت كلها مرضا ومعاناة ألم ويُتْم.. كان أبي ضائعا جنوب الوطن؛ ليعود وأنا في السابعة من عمري, وحين كنت في ذلك السن كانت تزداد نوبات الحمى في جسمي ورأسي, وكنت أنام على "دكة" مطبخنا القديم في القرية عصراً أتوجع واستدفئ بضوء الشمس .

كنت أفكر هل سأحقق حلمي يوما في أن أكون طيارا أو مهندسا أو كاتبا أو سياسيا محنكا ؟! هل سأترك أنا المنبوذ على هذه "الدكة" دون أن يحس بي أحدٌ أثرا في هذا الكون ؟!

كنت أمرض ولا أقول لهم: إنني مريض, فقط استلقي على "الدكة", فيما يمرون من أمامي وأنأ أتوجع صامتا تلفني ملابس ممزقة قذرة, يلعب الأطفال

مستمتعين بصحتهم وأقضي وقتي مستلقيا استمطر دفئ الشمس, لم يكن أحدٌ ينتبه لي سوى أمي بعد أن تكون قد جاءت من الوادي محملة بعلف البقر والغنم "حشيش ووبل وعلف", فإذا بها تأخذني وتدفئني, وتفك ملابسي لتغسلني وهي تقول لي بلهجة القرية: مُوْ بَكْ يا ابني ؟! لمه ما تقول لي أنك مريض ؟! وتخمدني تحت البطانية؛ كي أعرق لتخرج الحمى كما تعتقد, وكي أنطلق إلى المدرسة من أجل تحقيق أحلامي, وكأن أمي كانت تَسْتَكْنِهُ دماغي الصغير, وتعلم ما يدور في مخيلتي من طموحات غضة كبيرة، لقد كانت أمي الوحيدة فقط من يعلم بأحلامي !

قالت لي مرة كما فهمت منها: أن العيش بكرامة مسألة تستحق الكفاح من أجلها, وأن امتلاك الأشياء المادية فحسب لا تمنح الإنسان كرامته المفقودة من أعماقه، من ذاته، عليك أن تبقى على صلة روحية بكل ما ينمي فيك الإحساس بكرامتك .

أدركت وصية أمي - بعد تجربة طويلة في الحياة - أن التخلي عن الإيمان بالله والصلة به من خلال الصلاة وبقية العبادات هو تخل عن الكرامة الذاتية, وأن التخلي عن الإحساس بالناس هو تخل عن الكرامة الذاتية, التخلي عن مواجهة الظلم هو تخل عن الكرامة الذاتية. عرفت جيدا لماذا قالت لي أمي يوما: "كن صلِّ يا ابني خليك مع الله, يكن معك"! ولقد وجدت أني كلما كنت عميق الصلة بالله كنت أكثر قوة وكرامة!! فهل جربتم هذا ؟

إن ميزة الشعائر الإسلامية أنها تعمل على إعادة تصفية قلبك, وترشيد سلوكك ومنحك الأمل والتفاؤل والإحساس بجمال الحياة وبهجتها .

كما أن الصلاة هي الفعل المستمر في حركة الآمة التي يمثل انقطاعها أيضا انقطاعا في عملية النهوض والتمكين الحضاري {الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور}

تخرجت من الثانوية العامة عام ١٩٩٨م-١٩٩٩م بنسبة ٨٢٪ قسم علمي من مدرسة معاذ ابن جبل محافظة الضالع، وأديت خدمة الدفاع الوطني سنة تدريس بمنطقة عزاب التابعة لمديرية "قعطبة", وعملت مربياً للصف الثالث الابتدائي الذي كان يبلغ عدد طلابه ٦٠ طالباً, ومدرسا لمادة الأحياء للصف الأول الثانوي, وكانت تلك تجربة أضافت إليَّ خبرة جديدة عملتْ على تقوية مواهبي الخاصة, واختبرت قدرتي على التعليم, ومنحتني الإحساس بالمسؤولية ودوري في توعية الطلاب ومحاولة الارتقاء بتفكيرهم, ومن خلال ذلك تماهيت مع أبناء المنطقة, ونسجت علاقات طيبة معهم, فقد كانوا ذوي فطرة باذخة الكرم والنبل والشهامة, ثم بعدها أديت خدمة الدفاع الوطني في محافظة الجوف منطقة "اليتمة" اللواء ١٠٣ مشاة، و"اليتمة" منطقة غنية بالتربة الخصبة والمياه العذبة والمخزون البترولي, وتبعد عن حدود السعودية بحوالي ٥٠ كيلو متر، وحدث أن جاء بدو من أبناء المنطقة للبحث عن مدرس فوقع الخيار عليَّ؛ كوني كنت أصغر من في سرية التأمين التي تقع بجوار قيادة اللواء, كان قد رشحني لهم الضابط "الأبيني" عبد

الرحمن؛ كوني مثقفا - كما يقول - وأقول كلاما لا يستطيع أن يقوله زملائي، كنت أدخل مع زملائي المجندين في عملية حوار ثقافي فيما كان الضابط عبد الرحمن يستمع بصمت إلينا, كان بعضهم من دمت بيت الشغدري حقل الفارد أذكر منهم وضاح الشغدري و"ذو يزن" وغيرهم, وكنت متأثرا جدا بسيد قطب رحمه الله, وكثيرا ما قرأت له بداية الإعدادية وأيام الثانوية وبعد التخرج من الثانوية، كانت كلماتي قوية وأنا انطلق من رؤية سيد قطب ومن فكره المصاغ بشكل فلسفي وأدبي آسر ومتماسك يسحرك بجمال أسلوبه وندرته وقوته وعذوبة مفرداته وتأملاته وتحليلاته وتفسيره للصراع وكيف يمكن أن تعيد الأمة مسألة التفكير من خلال التحول إلى كيان حضاري منظم يحمل رؤية استراتيجية بعيدة المدى، وفعلا أتفق مع قطب في كثير من أطروحاته، فالإسلام بمبادئه المثلى وأهدافه الواقعية بعيدة المدى يمكن لأي مجتمع فيه أن يبني له عالما أمثل وكيانا أبدع في شتى مجالات الحقول الحياتية .

إن الروعة في "سيد قطب" ليست في مضمون ما كتب فحسب؛ بقدر ما هي في روعة في الاتجاه وجرأة البحث عن الطريق، لقد رسم هذا المفكر العملاق الطريق المفقودة بين أبناء الإسلام حينما حاول أن يتحرر من سيطرة التراث على فهم الدين، واختار الفكر كأسلوب للتعامل مع الإسلام، وقدم لنا الإسلام ككائن حي كأنه مولود اللحظة؛ مُحَرّرِاً رؤيتنا من أكفان التاريخ التي خنقتنا, وحنطت رؤيةً للدين نحسبها قابلة للحياة وهي ميتة منذ قرون، لقد نال سيد قطب شرف المحاولة الجادة الأولى في هذا المضمار, ومهما كانت

نتائج محاولته فيكفيه أنها وضعت أقدامنا على أول الطريق، وهذه هي مهمة كل كاتب ومفكر جاد .

عشت فقيراً وكنت أتعفن في سنوات الجامعة حتى يستقذرني زملاء الترف, ويعاف المدللون مجالستي, ويتهامسون بكون ثمة رائحة نتنة تنطلق من جسدي, ووجدت أنه لا أمل في إتمام دراسة تقوم على الحفظ والتلقين وبإمكان الغبي أن يصبح معيدا في هذا الجانب, فاتجهت نحو قراءة الفكر والفلسفة والأدب, وكنت قد حضرت عام ٢٠٠٥م محاضرة للأستاذ القيادي الإصلاحي أحمد القميري في أحد قطاعات الإصلاح الطلابية, وكان في محاضرته قويا وعميقا؛ حيث قال: "يا أبنائي, لا تدعو الأدب والنقد الأدبي حكرا على اليساريين والليبراليين, اقرؤوا في مجال الأدب العالمي, وفي مجال الرواية والنقد الأدبي".لقد حفز انطلاقتي بكلماته تلك، كنت أجوع لكني لم أكن استسلم لليأس, وكنت أنهزم لكني كنت أقاوم، وكانت تمنحني التجربة معرفة, والفشل أملا.. كنت أتعلم طرائق جديدة لصناعة النجاح .

غالباً أقبل خسارتي بصمت, وأمتص جرحي بكبرياء.. ألعق حمرة دمي المسفوك كليث قاوم ضباعاً قذرة لا تمتلك قيم الشرف في عملية الصراع؛ ولأني أدرك أن الحياة لا تسيرها الصدفة ولا قوانين عمياء, كنت أثق أن حركة الحياة حية, ولها ضمير عادل أيضا.. لم تكن تلك هي أخطاء الحياة بل هي أخطائي أنا، كنت أدرك أن الاستقامة لم تتحقق بشكل صحيح وأن نوايا السوء تعيق تقدمي وتكسرني الأقدار؛ كي أعيد تصحيح مساري والإضافة إلى ذاتي ما يقويني .

وأتذكر قول الله: {قل هو من عند أنفسكم}. والحقيقة أن الحياة في مجرى حركتها مستقيمة, وتسير وفق سنن وقوانين منتظمة لا تحابي أحدا أو تنتظر لأحدٍ، لكن الخلل الكامن في الذات يؤدي إلى تنكب المسار السنني, فيعجز الإنسان الرسالي عن مسايرة السنن ومعرفتها واكتشافها وتسخيرها واستخدامها لتحقيق الأهداف والغايات والأحلام, فيكون الخلل ذاتيا وليس موضوعيا, وهنا يحدث التصادم بين الذات والموضوع, وتختل حركة الانسجام بينهما، وتنقهر الذات, وتتكسر أمام استقامة السنن والقوانين المبثوثة في حركة الحياة وضميرها، و"من عند أنفسكم" يحتمل أكثر من معنى: من ضعف إيمانكم، من ضعف معرفتكم بالسنن والقوانين من ضعف إعدادكم، من ضعف تخطيطكم ورؤيتكم.

لم تبذلوا ما بالوسع لتصلوا إلى إيجاد وتحقيق المستطاع, كان القصور في مختلف جوانب حياتكم هو الحاضر؛ لأنكم لم تبذلوا كل الأسباب, ومع عدم بذلكم للمستطاع والمتاح والممكن لم يكن ثمة إيمان قوي في أنفسكم حتى لقد كان الضعف النفسي كامناً فيكم على كل المستويات, وهنا كانت الهزيمة، من عند أنفسكم !!

والحقيقة أن نقطة الخلل في أداءاتنا بمختلف أشكالها كامنة في النفس، ومن عندنا تأتي هزائمنا وانكساراتنا, ومن أعماقنا يتولد في الواقع ما يقهرنا ويؤخر قدرتنا أو يعطل مؤقتا قدراتنا على الحركة والتجاوز والتحدي والانطلاق.

والاستقامة التي لا تنبني على معرفة لا تستمر بقدر ما تؤدي إلى الانحراف والضلال، والمعرفة التي لا تنبني على استقامة تؤدي إلى غضب الله، وحين كنت أقرأ سورة الفاتحة عرفت لماذا قال الله تعالى: {اهدنا الصراط المستقيم* صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين} .

ولذلك فنحن نسأل الله كل يوم استقامة حقيقية قائمة على المعرفة, ومعرفة قائمة على الاستقامة .. والذين أنعم الله عليهم معروفون، وهم الذين مزجوا بين الاستقامة والمعرفة, فسلكوا صراط الحق المستقيم باقتدار ويقين.

إنها مسألة تحتاج إلى كثير من التركيز والانشغال على الداخل بنظرة واعية لا تهزمها الأخطاء ولا تراكم العقد النفسية التي تزيد من تعثرنا, نصلح كي نتحرك, كي نتجاوز, كي نبصر بقوة مع عدم الانشغال عن الخارج, يجب أن نعطي للجانبين ذلك التوازن الذي يعبد طريق العبور ويعيدنا إلى مسار القوة والفاعلية والتأثير في مجرى حركة الحياة ودفقها المستمر والمتجدد .

ذات مرة وأنا متأهب لأداء خدمة الدفاع الوطني "تجنيد" عام ٢٠٠١م بعد أن أتممت خدمة التدريس في منطقة عزاب كان بصحبتي أخي الأكبر "رعد"، وقبل أن أصعد الشاحنة دس ورقة صغيرة في جيبي قائلا: اقرأها بعد أن تصل إلى المعسكر، وحين وصلت فتحتها بشغف بعد أن افتتحها بالبسملة بدأها بالآية التالية: {إن من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين} الأخ الشقيق رداد بكل معاني الأخوة المتعددة أحييك بتحية الإسلام.

وبعد: اعلم أن عليك واجبات ولك حقوقا, بل لك حقوق, وعليك واجبات يجب أن تؤديها, وإذا كان هناك نقص في حقوقك أو حقك, فدينه للحي القيوم, واحذر أن يكون النقص من نفسك, أما ما كان نقصا من الآخرين فالله القاهر سيعوضك عنه .

وأما واجباتك فلا تتوانى عنها، نعم يا أخي, حقك إذا نقص من تلقاء نفسك فخسارة خسارة !! وحقك إذا نقص أو أنقصه الآخرون أيا كانوا فليس بخسارة؛ إذ كيف يكون خسارة وأنت مدينه للحي الذي لا يموت, القاهر فوق عباده ؟!

أما واجبك فيجب أن تؤديه على أكمل وجه, وواجبك نحو نفسك هو واجبك نحو المجتمع بشكل عام، وواجبك في اتجاه الحق هو واجبك أمام الله, ثم ختم تلك الرسالة القصير بالآية الكريمة {وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ..}
.

لقد كانت تلك الرسالة ولازالت بمثابة رؤى طريق للسير وسط ألغام الحياة وتحدياتها .

إن الثبات مسألة تستلزم وجود قيم حقيقية يسير على دربها الإنسان دون أن يتنكبها, وإن الضعف على المستوي الإيماني والقيمي يؤدي إلى ضعف في الذات وترسيخ الإحساس بالضعة والهوان وتخلي الإنسان عن دوره في الحياة ومسؤوليته الرسالية وتلاشي اهتماماته الكلية الطامحة لتشكيل واقع وطني وإنساني أفضل, ويكف عن محاولة تأهيل ذاته ومجموعه للوصول إلى تحقيق دولة قوية .

إن شعوبنا تواجه الفقر في كل شيء، والفقر يؤدي إلى تنمية روح التخاذل والانكسار وانحسار القدرة على المواجهة والبناء وإنجاز فعل التنمية والنهضة والتعاون، وتنهزم ذات الفقير فيستبعد ويتشضى المجتمع ويفتقر إلى التماسك والتناسق والانسجام الاجتماعي, وتحل الطبقيات الفارزة المنتجة لصراع لا يتوقف؛ وبالتالي فإن تلك الحالة تخلق مزيدا من الرضوخ والتنازل عن أساسيات الإنسانية, "فالعاطل عن العمل في المجتمع يعاني من هتكٍ لضميره، أي: أنه في وضع تكون فيه رؤيته لقيمه الذاتية مغشاة دائما بالضباب" !!

وحين يضعف الإنسان نفسيا نتيجة الخوف من الفقر يضعف موقفه في الحياة ويصبح مهيأً لتقبل مختلف الإيحاءات النفسية وإملاءات الشيطان وأتباعه, وكم أكد القرآن بأن الشيطان لا يأمر بخير !! بل يعد بالفقر ويأمر بالفحشاء؛ لأن طبيعته هي الشر، والإيمان بالله ينتج الشجاعة والثبات النفسي الذي تنتفي معه كل أشكال الخوف الذي بدوره ينتج الضعف والضعة.

فالمؤمن مملوء اليقين, قوي الإرادة, جبهته الذاتية الداخلية حصينة؛ لذلك قال الله: {إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}. فالخوف من الله أمان وقوة، وتخويف الشيطان ضعة وضعف وهوان وفشل .

إن لعبة التخويف هي جزء من عملية الحرب النفسية وإسقاط الخصم و هزيمته من الداخل أولاً، و الوعد بالفقر أبرز المداخل إلى الإنسان؛ لارتباطه بضرورات بقائه وعيشه, فكما يؤتى الفقير من هذه الناحية يؤتى الغني - أيضاً

- من هذه الناحية؛ لذلك كان الأثرياء عرضة للخوف بالفقر وأكثر خشية على مصالحهم الخاصة في لعبة الصراع السياسي, ويقدمون التنازلات السياسية التي تمس صميم كرامتهم وكرامة شعوبهم, فلا ينفقون أموالهم لمواجهة التحديات والمخاطر التي تواجه الأمة, ولا يسهمون في إنفاقها من أجل بناء مشروعات إنتاجية تسهم في تقليص دائرة الفقر والسغب والمعاناة الاجتماعية وتعيد تأهيل قوى المجتمع المعطلة؛ لتؤدي دورها في عملية البناء والتنمية والنهضة والإنتاج وتحقيق الاستقرار اللازم لهذه النهضة المحلومة .

إن الشعوب الفقيرة تعاني من نزيف حاد في طاقاتها وقيمها ويقينياتها ومختلف جوانب حياتها, وهي شعوب لديها قابلية الاستعباد و الاستجابة السلبية لمختلف التحديات وإيحاءاتها الخطرة التي تسلبها تماسكها وشجاعتها وثباتها في المواجهة، فيسهل عند ذلك سلبها مقومات قوتها النفسية من إيمان ويقين ومقوماتها المادية من ثروات وغيرها، فهي فقيرة جاهلة رغم ثرواتها المكدسة وإمكاناتها الضخمة، فقيرها مستعبد ومستبعد من حق الحياة بكرامة, وغنيها مستعبد في حالة خوف مستمر من الفقر يبدد ثرواته في البحث عن موازين قوى موضوعية تحمي ثرواته ومصالحه الخاصة؛ ليقع في فقر "الأمن والكرامة" دون أن يدرك أن بإمكانه أن يسهم بثرواته تلك في إنتاج القوة الذاتية من خلال الانخراط في عملية إنفاقها بما يبدد فقر شعبه وأمته ويؤهلهم لامتلاك القوة من تعليم وتأهيل يصب في خدمة المشروع الجمعي القوي الذي يؤسس القوة والإعداد الشامل لها والذي تُرهِب به العدو الموضوعي المعتدي الذي ترهبه قوة الشعوب الروحية والمادية على حد

سواء؛ ولذلك - مثلا - فالفكر المادي الاشتراكي يستغل فقر الشعوب بإدماجها في عملية القبول بفلسفته الاقتصادية المشاعة التي تعتبر مسألة العلاقات الجنسية غير الملتزمة ببعد قيمي وأخلاقي وشرعي مسالةً علمية؛ لأن الأخلاق والقيم والكرامة مسالة غير علمية في الفكر المادي بشكل عام, ومنها الفكر والفلسفة الاشتراكية تماما كما هي الفلسفة الرأسمالية ومذهبها الليبرالي .

إن الفقر أحد أبرز الأسباب المؤسسة للهزيمة في هذا الزمن، وأحد أبرز مداخل الخوف إلى الإنسان الذي بدوره يؤدي إلى الضعف الذي يتقبل معه الإنسان إمكانية الانحراف وارتكاب الفاحشة بمختلف أشكالها, وكلما اتسع نطاق الفقر اتسع نطاق المعصية، والمعاصي تلعب دورا أساسيا في هدم قوة الأمم والشعوب وإضعاف تماسكها وقدرتها على المواجهة والإعداد الشامل .

عام ٢٠٠٩م قلت: في الكثير من الأحيان يضعنا واقعنا المصنوع عنوة دون إرادتنا أمام ذواتنا كعاجزين؛ وبالتالي يستولي علينا شعور بالضعة والتفاهة, ونبدو كأشخاص ناضبين من القدرة على الإبداع والعمل والتغيير، وغير قادرين أيضا على تجاوز ذواتنا نحو خلق واقع نكون فيه بمنأى عن التشيؤ والارتهان لسلطة ما قاهرة .

قد تكون خبراتنا محدودة، وثمة فجوات معرفية صنعتها ظروف ما، ولم تنضج بشكل جيد بحيث يمكن أن تساهم تلك الخبرة في جعلنا نرى المستقبل بوضوح على ضوئها، وما هي الحدود التي يمكن أن نقف عندها؛ كي لا نقع في فخ العجلة, ومأزق الارتهان .

فالخبرة الناضجة هي نبع معرفة متدفقة، يمكن أن تقودنا على نحو إيجابي باتجاه تغيير حقيقي يعزز من قدرتنا على فهم وإدراك التحولات ومسار الأحداث.

ولذلك نجد أن غالبية الشعب غائب تماما عن النضال, أو لم يدخل ضمن اهتمامه ما يحفزه لأن يناضل، أو لأنه - أيضا - في وضع استحكم اليأس منه؛ وبالتالي أنتج حالة نفسية غير قادرة على استيعاب أهمية النضال بوعي لنيل حقوقه وانتزاعها عنوة إن أبت ذلك سلطة القهر ونخبة الاستلاب المهيمنة .

فالوضع الاقتصادي والمعيشي السيئ له دور كبير في خلق وإنتاج هذه الحالة السلبية وإن كان يفترض أن يكون هو المحرك الأساسي للنضال، وبدلا من أن يكون ذلك وحده محركا للنضال والحركة بحيث يحدوه الأمل في التغيير الذي يؤسس لعدالة وشراكة وطنية حقيقية، أصبح البحث عن عمل - ولو كان فيه ارتهانٌ - هو الهم الوحيد، دون البحث عن أفق يكون فيه مُنْعَتَقٌ من العبودية التي تتخذ صيغا خادعةً كما لو أنها حرة .

كان ذلك قبل الثورة اليمنية ١١ فبراير ٢٠١١م بسنتين قلت: إن المجتمع بحاجة إلى أن يخلق على ضوء واقعه المر أدوات تعاونه وتعاضده مع بعضه؛ وبالتالي فإنه في مسعاه لانتزاع الشراكة الوطنية يؤسسها واقعا فيما بينه على شكل تعاون وتكافل إنساني، يمكنه من تجاوز حالة التشظي والتفكك والفتك بضميره الجمعي والفردي, إلى تكوين قيم نضالية جماعية واعية قادرة على الصمود ومواجهة سياسة التفريق والتمزيق والانقسامات والتجويع والتركيع

الفردي والجماعي التي يصنعها النظام بغرض تشتيت قوة المجتمع للحيلولة دون التحامه وتقويضه وبناء أسس وقيم وطنية جامعة على أنقاضه.

إن الحالة السائدة التي تهيمن على الواقع هي غياب مبدأ التلاحم الوطني بين قطاع واسع من الشعب والإحساس ببعضهم، فالإسلام كدين إنساني يؤكد حقيقية مفادها أن المجتمع الذي يدعي الإيمان ولا يمارسه فعلا إنما هو مجتمع مدعٍ خاوٍ من الإيمان، فقد قال رسول الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم: "والله لا يؤمن" – قالها ثلاثا – قالوا: من يا رسول الله؟ قال: "من بات شبعانَ وجاره جائع". إن إحساس الشعب ببعضه والشعور بمعاناته سيعمل على خلق شراكة وطنية عميقة وراسخة في القلوب والمشاعر والوجدان، ويؤسس بُنْيَةً متينة للتغيير، وقبل ذلك لابد من الإمساك بعناصر القوة الضامنة لتحقيق تغييرٍ فاعلٍ, فليس من حقيقة تاريخية -كما يقول أحد المفكرين - إلا وهي إنسانية في ذات الوقت، وتغيير الواقع ليس عملاً ميكانيكياً بقدر ما هو - أيضاً - اهتمام بأحاسيس الناس.

لن يكمل الدربَ شخصٌ يمشي فيه بنصف يقين، وثورتنا التي قامت في ١١ فبراير عام ٢٠١١م كانت تفتقر إلى الرؤية واليقين الكامل بقدرة الشعب؛ لذلك استسلمت للمبادرات التي سلبتها خاصية التغيير الجذري؛ وبالتالي دخلت دوائر المؤامرات الغربية التي وجدت أن الثورة لم تفرز خيارات تتسق مع مطامحها, وتلبي حاجتها لإنتاج نظام يعمل على تكييف الدولة والشعب والثقافة بصيغته القديمة القائمة على التبعية المستمرة والدائمة.

لقد تخلت قوى الثورة الحقيقية عن عناصر قوتها, وراحت بدون وعي تفكك تلك العناصر, وتتفرج على مسألة ضربها من قبل الثورة المضادة التي تقودها كلٌّ من أميركا والسعودية والإمارات من جهة وإيران من جهة أخرى عبر أدواتها الداخلية النظام السابق وحركة "الحوثي". أرادت قوى الثورة الحقيقية تقدم نموذجا للمدنية والوطنية, لكنها ظلت مدانة حتى من شركاء العمل السياسي الذين تختلف معهم أيديولوجياً والذين يقعون ضمن تكتل واحد؛ لتجد ذاتها في النهاية محاصرة ليس أمامها سوى الاستسلام ليس خوفا, ولكن حقنا للدماء وأملاً في بروز معادلات جديدة قد تؤدي إلى نتائج مختلفة أو متوقعة وهو ما حدث لاحقا.

لقد استطاع الإصلاح كأحد أبرز قوى الثورة من الناحية السياسية أن يجمد حيوية "الحوثي" من خلال "تسييس" الصراع وجعله يتركز حول الوطن كقيمة, والدولة الوطنية كخيار استراتيجي ومطلب شعبي, وحول الحقوق والحريات والديمقراطية، أي: أن الإصلاح استطاع أن يمزق الورقة "الطائفية" ويحرقها؛ ليبقي المسألة مفتوحة على خيارات وطنية لا يستطيع "الحوثي" الحديث عنها أو القيام بها وممارستها واقعيا؛ لأنها ليست من طبيعة مشروعه الفكري الخاص والسلالي الضيق، وأفسح له الطريق بسلاسة بعد أن تحالف الرئيس صالح معه ومكنه من الدولة بتخطيط سعودي إماراتي بهدف ضرب وتصفية الاخوان المسلمين الذين قادوا ثورات الربيع العربي ، فيما تمسك بخيار السلم ليكشف زيف "الحوثي" واقعيا ويسقط شعاراته

الزائفة أمام الجميع، فمن لازال مخدرا بالشعارات استيقظ أخيرا ليرى حقيقة حملتها.

في تلك اللحظة التي اقتحم فيها الحوثي صنعاء بدأت تظهر كوامنه الحقيقية, وتفصح عن ذاتها على شكل ممارسات غريبة وشاذة ودخيلة على الكيان الاجتماعي الوطني, بل وحتَّى على قيمه العقدية، وهنا بدأ السحر يفقد قوته فيما أصبحت الحقائق تتقوى واقعيا .

وفضلا عن ذلك فإن استخدامه من قبل بقايا نظام صالح أفصح عن حقيقة مفادها أنه من الضعف بحيث ما كان له ليحقق انتصاراته الزائفة لولا مساندة ألوية "الحرس الجمهوري" له, وخيانات وزير الدفاع, وضعف شرعية الرئيس هادي فقد وجدت الثورة السلمية البريئة ذاتها في مواجهة انقلاب مسلح مدعوم داخليا وإقليميا ودولياً .. إذًا فـ "الحوثي" مجرد أداة استخدمت لتحقيق أهداف لا تصب في مجرى تحقيق شعاراته الزائفة بقدر ما أدخل في عملية حرب ثأرية واسعة النطاق ستكون انعكاساتها المستقبلية عليه وخيمة .

إنَّ للسياسة أدوات قوة مختلفة المهارة الشخصية في اختراق مهارات الآخرين وهو عمل احترافي من أعمال السياسة. والسياسة المنطلقة من معرفة علمية وأصول معرفية هي دائمًا الأقوى، والحفاظ على الثوابت في العمل السياسي يستلزم الخروج عن الإطارات وتجاوزها, فالثابت ليس إطارا, بل مُحَدِّدٌ ومُنطَلق يجب أن يبدع السياسي في تأكيده وتثبيته والحفاظ عليه، على أن لا تتخلى عن أدوات قوتك الأخرى وعناصرها المختلفة.

والحقيقة أن أساليب السياسة الأمريكية والغربية بشكل عام في تخريب الثورات وإجهاض التحولات المنفكة عن تبعيتها ستظل مستمرة, وأن مسألة الحقوق والحريات والحديث عن الديمقراطية تنتعش بعد أن تكون قد قضت على الثورة وعلى القوى المنفكة عن تبعيتها والحاملة لمشروع نهضة لا يرتبط بأنماط علاقاتها الاقتصادية والإنتاجية والسياسية، فهي تسهم وتدعم الحركات الانقلابية وتمولها من أجل الحيلولة دون تشكل قوى قادرة على تحقيق نهضة ذاتية وترسيخ ديمقراطية حقيقية لا تؤدي إلى إنتاج بدائل حليفة لأميركا وقوى الهيمنة التابعة لها، فأميركا سوف تدعم القوى الأكثر تخلفا, تلك التي تعمل على تحقيق مصالحها وتعزيز هيمنتها في مختلف المجالات؛ إذ إن الديمقراطية أو الديكتاتورية تجري المفاضلة بينهما - بالنسبة لأمريكا - حسب قدرة كلٍّ منهما في سياق تاريخي معين، على أن تقدم خدمة لمصالح التوسع والهيمنة الأمريكيتين، والخوف من الإسلام السياسي هو خوف من قوى وطنية منظمة وناضجة تفهم بدقة معرفية اللعبة الدولية والسياسات العالمية، وتدرك أن ترسيخ الديمقراطية الحقيقية خيارٌ ثابتٌ؛ لإخراجها "الديمقراطية" من الحالة الشكلية والتكتيكية التي تتلاعب بها أميركا عبر القوى التابعة لها محليا؛ لتنتج حقا خيار الشعوب وتطلعاتها في الحرية، والنهضة، والاستقلال، والاستقرار، والحياة الكريمة .

لكن ما يجهله جل الإسلاميين أنّ السياسة كفعل وممارسة لا تدار بالمواعظ الأخلاقية والشعارات التعبوية، وإنما بالفعل والإنجاز وصناعة

التحالفات وبناء الحقائق التي تضمن مصالح المجتمع والوطن الذي ينتمي إليه الفاعل السياسي .

كما أن صناع الخطاب الإسلامي اليوم معنيون بالدرجة الأولى بصياغة مشروعات وخطط عمل قادرة على إخراج دول الربيع العربي من وهدتها وسكونها وجمودها وارتدادها إلى رحاب الفعل والتنمية والقبض على كل أسباب التقدم والتطور .

إن مهمة الإسلاميين الناضجين في المستقبل التزام خط النضال السلمي والمدني والمعرفي والعمل الاستقطابي الدؤوب لعناصر القوة المختلفة،

فإنضاج وعي شعوبنا بطبيعة الإسلام والتحديات هي مهمتهم الأساسية وهي مهمة عسيرة وشاقة, لكنها ستوفر الأرضية القوية في مضمار الصراع والتحدي العالمي في المستقبل مع قوى الامبريالية بشقيها الاشتراكي والرأسمالي، إن التحديات لن تثنينا عن تحقيق غايتنا في صناعة تحول إيجابي لصالح بناء منطقة ناهضة وفق قيمنا مع الانفتاح العقلاني والحوار الحضاري وتأسيس المشتركات التي تحقق عملية توازن عالمي بين مختلف القوى".

إن ما نعانيه من حالة انحراف عن فهمنا الحقيقي للإسلام ومن تخلف مستدام وبروز جماعات العنف والتطرف نتاجٌ طبيعي لثلاثة عوامل:

الأول: عدم فهمنا للإسلام كدين حضاري وإنساني رحيم وناهض .

الثاني: التبعية الفكرية والسياسية والاقتصادية لقوى الهيمنة بصيغتيها الاشتراكية والرأسمالية والتي أوجدت أنظمة ترسخ حالة العجز والفساد

والجهل والتخلف لتضمن ديمومة هيمنتها على المنطقة وشعوبها وثرواتها وموقعها الاستراتيجي .

الثالث: أن قوى الهيمنة تلك أسهمت كثيرا في تشويه الإسلام وتجنيد متطرفين لأداء هذه المهمة القذرة؛ لإدراكها أن الأصول المعرفية للإسلام قادرة على توفير البنى المؤسسة للنهضة والتقدم والتحضر والعدالة والحرية إذا ما فُهِمتْ على النحو الصحيح والسليم، أما التناقض الموجود بين الاشتراكية والرأسمالية فهو حول المصالح والهيمنة على المنطقة وبناء النفوذ الضامن لمصالحها فيها ، وهو تناقض بسيط بينهما يمكن تسويته بالتفاهم والتقاسم بينهما , لكن المنطلق المعرفي بالنسبة لهما يظل واحد هو "الفكر المادي".

إنه لـ"يمكنك أن تبعث النصائح والمواعظ, ولكنك لا تستطيع بعث مكارم الأخلاق" (مثل تركي) .

تتحدث أميركا عن الديمقراطية كموعظة مشجنة ولطيفة, لكنها أبعد ما تكون من الناحية العملية أو الواقعية عن احترام خيارات الشعوب، أميركا تريد حقا لشعوب المنطقة أن تكون إرهابية، وأن تحكمها الديكتاتورية؛ لأن الديمقراطية فيما لو طبقت حقا فيما يتعلق بالانتخاب الحر ستنهي هذه العناصر التي تنعش السياسة الأمريكية وتغذي من فرص وجودها وتمنحها المبررات الكافية للتدخل في شؤونها الداخلية، ودائما دائما أقول للكثير: إن الديمقراطية ليست خيار أميركا حقا، الديمقراطية خيار شعوبنا الحقيقي ولا يمكن أن نتخلى عن الديمقراطية لمجرد أن أميركا تتلاعب بها وتستخدمها في وقت معين

لتحقيق مصالحها كما تستخدم النظم الشمولية الديكتاتورية التابعة لها من أجل ذلك، الديمقراطية خيارٌ أساسيٌّ ولا يمكن أن تتحقق نهضة واستقرار إلا إذا تم تأسيس ثقافة وممارسة ديمقراطيتين راقيتين ومستقرتين, وعندها نستطيع أن نتجاوز الكثير من المعضلات التي تلقى في طريق شعوبنا بغرض إتلاف محاولاتها الجادة من أجل الاستقرار والبناء والنهضة التي تتأسس على وجود قاعدة ممارسة ديمقراطية رشيدة وناضجة ونزيهة .

لقد كانت الثورة بدأت بإنتاج الإنسان الحر القادر على الإفصاح عن رغبته في المشاركة السياسية بفاعلية دون اللجوء إلى منطق العنف والقوة والإجبار, وكنا بدأنا نتنفس عافية الحياة الكريمة, لكن لعبة الانتقام والأحقاد ومطامح القوى الإقليمية والدولية وكيد الجيران والأقارب أدت إلى مقالب حقيقية وانقلابات قذرة على ذلك التهيؤ الإيجابي لميلاد مجتمع جديد ينقاد للغة الفكر والسلم والمدنية والحوار والاحتكام إلى أدوات الاختلاف العقلاني الذي بدوره يخصب من حيوية المجتمع, ويدفعه إلى بناء دولته القوية, وتحقيق نهضته المأمولة .

إن الإنسان الحر الواعي هو رهان المستقبل وعنصر القوة في حركة البناء والتنافس الإيجابي, فعندما تدرك أنك إنسان حر، في إطار مجتمع حر، تبدأ حياتك بالانتعاش، والأمل، وتتفتق قدراتك الإبداعية، في توليد وإنتاج ما ينفع الكل .. إن الحياة تتجدد بمقدار ما نكون أحرارا، فالحرية ليست رديف الفوضى، بل أساس الحياة الكريمة ومعناها الأجمل؛ ولذلك فالشعوب القادرة على فرض إرادتها وتطلعاتها، وتحقيق تقدم في حياتها هي الشعوب الحرة التي

تتعاون فيما بينها لإنجاز حياة أفضل لها. إنها تعيش كل يوم ميلادا أجمل، وأقوى، وأرحم، تسترشد بالمعرفة العلمية، وتحل تناقضاتها، بما يحقق لمجموعها الخير والازدهار؛ لذلك فإن الحرية هي أساس الوجود الإنساني الحر، وشرط من شروط التغيير، والإبداع، والتجديد، إنها استفاقة الضمير، وصفاء الوجدان وانتعاشه، تبعث في الإنسان طاقة المواجهة مع مختلف التحديات المعيقة لقدرته على الحياة، وحقه فيها على النحو الأفضل .

ويمكن أن نقول عن أنفسنا أننا أجيال أسقطت الأيدولوجيا بواسطة التكنولوجيا, لكنها لم تصنع ثورة بقدر ما صنعت انتفاضات؛ لأن الانتفاضة تسقط النظام فحسب، لكن الثورة تفعل ما هو أبعد من ذلك, إنها تبني دولة ونظاما جديدين, وهذا ما لم يحدث أصلا .

والسؤال – هنا – هو: لماذا لم تحدث ثورات حقيقية؟

والجواب: لأن طبيعة شعوبنا لم تصل بعد إلى مستوى من الوعي الناضج الذي يجعلها تدرك أهمية التغيير وضرورته بشكل جذري, التغيير الذي تتأسس عليه دولة ووجود نظام ديمقراطي تعددي حقيقي, وآليات تنغم فعل الصراع والمنافسة بطريقة عقلانية وإنسانية تؤدي إلى إنتاج نهضة, ويترتب عليها بناء حقيقي يحل محل الأبنية القديمة المتآكلة .

هذا العامل الذاتي الهش هو الذي مكن العامل الموضوعي من الإسهام الفاعل في عدم إنضاج وعي الشعوب واستمرار ثوراتها لِتُبَلْوِرَ واقعا كليا جديدا على كل المستويات, ومنها المستوى المعرفي الأهم .

إن ما يحدث الآن هو استرداد أيدلوجي لهذه الثورات، وعودة إلى أسوأ صيغ الاستبداد والديكتاتورية, عودة إلى ممارسة القهر والإجبار وإضعاف فاعلية المجتمع .

والشعوب الحرة هي التي تمتلك القدرة على حماية مكتسباتها وتماسكها الاجتماعي ووحدتها، إنها تصوغ حياتها وفق منطق التآلف والشراكة والتكاتف، وتوظف مختلف قدراتها بما يعزز من قوتها بمختلف أشكالها.

والشعوب الحرة لا يوجد في قاموسها النظري والعملي مفردات الظلم والإقصاء والتجبر، وتستعصي أمام أي محاولة لحرفها عن مسارها السوي، وتنتصر لقيمها الإنسانية الرحيمة، وتفتق الأمل في قلب اليأس تماما كما فعل الشعب التركي المسلم بكل قواه حين وقف ضد انقلاب ١٥تموز من شهر يوليو ٢٠١٦م وأفشل مخططا غربيا خطيرا كاد أن يقضي تماما على ديمقراطية تركيا وقبل ذلك نهضتها القومية بغية كسر آخر قوة وأمل لدى شعوب المنطقة العربية والإسلامية فتركيا تمثل نموذجا للقوة الإسلامية الصاعدة باقتدار فهي تمتلك مقومات القيادة العالمية مستقبلا كما تمتلك عناصر قوة ذاتية كالتاريخ والموقع الجغرافي والعنصر البشري الواعي والمؤهل وقبل ذلك رسالة الإسلام التي أحسنت فهمها واستيعاب مضامينها القيمية والرسالية العظيمة التي تحث على امتلاك عنصر القوة بمختلف اشكالها الذي يَضمن تحقيق العدالة، ذلك أن الضعفاء لا يستطيعون حماية أنفسهم فضلا عن حماية غيرهم من المظلومين في الأرض.

هل هذه مثالية طوباوية، وأضغاث أحلام؟ وتفكير يتجاوز منطق التناقض في الحياة؟ بالتأكيد قد يبدو ذلك، لكنه المثال الممكن، الذي حققته الكثير من شعوب الأرض، فتجلت حياتها على نحو رفيع، اقترب من أروع المثل وأنقاها .

إننا نحتاج إلى ثقافة التحدي السلمي، إلى ثقافة البناء القوي، ونحتاج إلى كثير من البذل والاستعداد للتضحية والصدق مع ذواتنا؛ كي نكون عند مستوى نهوضنا، وما نرجوه من وطن.

فالحرية لا تعني الانفلات من الضوابط الأخلاقية والإنسانية، وإنما تعني امتلاك القدرة على التعرف والاختيار وفقاً لقواعد عقلية أو ضوابط شرعية.. كما أنها ليست تحقيق اللذة، وإنما تحقيق الحقوق والواجبات في كل الدوائر والمجالات والمساحات .

إننا يجب أن نتعلم قيم التسامح والعفو والصفح والتجاوز عن أخطاء الماضي بعدم الانتقام من أجلها أو تكرارها, ومن لا يستطيع أن يسامح الناس ويتخلى عن أحقاده فهو مختل عقليا، وليس أهلا لكي ينصح الآخرين أو يقودهم .

إن التلاعب بالأيديولوجيا غير محدد المعالم.. واللعب بجهل العامة والكيانات التي ليست لها وجود مثل الكوابيس تسير بالعالم صوب شكل من أشكال المذاهب الضالة، لا توجد منفعة ذاتية تستحق المطالبة بسحق الجنس البشري.. فلو كان التجبر يعني الصواب، لكانت روما اليوم ما تزال تحكم العالم، ومن يخاف اليوم من هذه التحفة الأثرية التي كانت روما؟

إن المجتمع الحر الذي يعمل في تعاون كامل باتجاه أهداف مشتركة، هو مجتمع يتمتع بمستوى شعور عال، ورفيع قادر على البقاء والاستمرار.

فحين يعجز الفرد في تكوين ذاته، فإنه قد يعجز - أيضا - أن يكون ضمن إطار مجتمعه، وهنا لا يدرك البعض أن ذلك يشكل عجزا اجتماعيا يتزايد كلما تزايد العجز الفردي المنفرط من سياقه الاجتماعي نتيجة الاستبعاد، حين يئد المجتمع قدرة أفراده في تكوين إنساني أفضل، لست متأكدا من ذلك، قد تختلف وجهات نظر البعض، ولكن المجتمع يحفز بعضه في النهاية, ويلم شتاته ليجمعه كقوة قادرة على التغيير، وفرض خياراته التي تحقق مطالبه في حياة اقتصادية واجتماعية أفضل .

فالشخص يكتسب قيمته الأخلاقية حسب ما يراه "هيجل" عندما يعي ذاته وحريته, وينفتح على الواقع الذي ينتمي إليه بالدخول مع الجماعة في علاقة تعاون متبادلة؛ امتثالا للواجب .

إن الإنسان الضيق الأفق أو الحاقد وحده الذي يكن مشاعر الكراهية للناس العاديين؛ لأنهم ليسوا أبطالا كما يعتقد؛ ولذلك واجهت من هذه النوعية الكثير, وكثيرا ما كنت أتجاوز برحابة صدر كل أشكال التعالي الفارغ والأحاسيس الغبية التي تحاول أن تمس من امتلاء ذاتي أو تفرغها من محتواها القيمي لصالح إدخالي في عملية استنزاف يخفف من نبلي ويقيني الهادئ, ذات مرة قالت إحدى الليبيات في احد المنتديات "إملاءات المطر" بعد أن قرأت مقطوعة أدبية واقعية لي بعنوان "الله لا ينسى يا صديقي" قالت: "أخي الفاضل رداد مجبول على النبل أنت, لا أقرأ لك شيئا إلا وتجلت سحابة

بيضاء.. تتحرى المطر وإن لم تستطع استحالت ظلا يمنح الأرض فسحة من سكينة". ظِلّ يمنح الأرض فسحة من سكينة إن قدرتك على أن تبرز حزنك بإيمان نبيل يجعلك أكثر قدرة على التأثير ويمنح قارئك فرصة إمكانية استكشاف كوامنك والإفصاح عن أصالة جوهرك ونبالة نفسك، ولقد كنت أكتب فينتابني الإحساس بالاختلاف غير المتعالي عن الآخرين, لكأن الكتابة صلاة بحد ذاتها تؤصل فيك قيم الخير والجمال, وتجعلك تستشعر مسؤولية التثقيف والتعليم والرقي بالمدارك والعقل والوجدان، إن الكتابة ليست مسألة سهلة إنها قيمة حضارية تختزن كل بذور المستقبل وأشكال المقاومة, وللكلمة دور في صناعة الواقع وتغيير مجرى التاريخ وحركة الحياة .

يقال: إن أسوأ شيء هو أن تعري إنسان أمام ذاته ليراها كما هي، وأسوء من ذلك الأسوأ أن تجعله عاريا أمام ذاته والآخرين .

فحين تكشف المستور، وتنبش في أضبار المحظور، وتبين عن حقيقية ما يبدو مغريا أو مدهشا، تتفاجأ بالعداوات، وتطارد بالأحاجي والألغاز، كي تظل أحجية تلهي الباحثين عن حل ألغاز الساسة المأزومين الكثيرة والمثيرة.. هذا أنت ككاتب ومثقف، الإنسان المحلول مسبقا والذي لم يشفر ذاته خلف أردية التمويه, لا يحجب حتى عن ذاته؛ لأنه لا يؤمن بغير الحقيقية، ولا يطمئن لسواها، فيعرضها بعد أن يسمعها أو يقرأها، أو يبحث عنها، ويلقيها أمام الكل كطبق حساء شهي في ليلة باردة، فمن شاء أكل, ومن شاء ترك !!

وبكثير من الحذر تراقب كلماتك؛ كي لا تنزلق إلى ما لا يفهم منك، أو يستوعب، وبروح المغامر تتحدى الرقيب, وتتخطى الخطوط الحمراء؛ لتكتب عما ينبغي أن يكتب عنه، يقودك إحساس الرسالة كذي قلم؛ لتؤدي واجبك نحو الله والحقيقية والناس, كما لو أنك عابدٌ يؤدي صلواته.

لا يعكر صفاء تعبدك في محراب الكلمة وهيكل القلم سوى ذوي الأفهام السقيمة المصابة بداء السطحية وعفونة التفكير المنبثق من أدمغتهم الخربة، الذي يرقبون ما تكتب ليفسروه وفق ما تحويه عقولهم العكرة، وأدمغتهم الصدئة، بوساوس الكيد والحيلة والدس الرخيص، لكنك تظل رغم ذلك ممسكا بناصية القلم، تجس به نبض الواقع الوطني وترصد حركته، وتحولاته، والفاعلين فيه .

إنه معبر ليس سهلا، فأنْ تكتبَ فيه من المشقة والكبد، ما يصيبك بإنهاك شديد، إن الكتابة وحي كوحي السماء، ترتعد لها الفرائص ويتعرق الجبين, وتظل أعصابك مشدودة .

تودع ما تكتبه بطون الأوراق وصفحات "الشبكة العنكبوتية"؛ لتدع الأيام تحكم فيما تقول، والزمن يبرهن على صحتها وخطئها .

وفي الكتابة وهج الذات, وهي تحاول اختراق العتمة المنسكبة من غسق الزمن, وهي ذلك المعراج القادر على الارتفاع والتسامي والتحول إلى كائن بلوري مضيء.. يجتاز بك القلم إرجاء الانحصار الذاتي إلى أفق أرحب تلتغي معه هموم الحياة وتحدياتها, ويتلاشى أمامك جليد الواقع الصلب, وتصحر

الهجر الناجم عن علاقات وصداقات عقدت معها الوفاء فانحلت روابطها عند تكاثف أول غيم من سحب التحديات .

إن العيش بين الكلمات حياة أخرى؛ فالكلمة تمنحك تخطيطا فكريا وخارطة ذهنية تعبر من خلالها نحو اتجاهات حياتية راقية ناشلة للذات من كل سقوط وانحدار لكيانك الإنساني النبيل .

وفي عمق الكلمة تحتفظ بكل إمكانات تجددك وأجنة ميلادك الحيوي الناضج, إنها تمنحك استمرارية التواجد في قلب التحديات, وتعيد إليك التفاؤل وسط مجتمع عاثر لا يحمل إلا اليأس والإحباط والتشاؤم .

سأعود لأسرد قصتي, للشمس جدائل الوقت منسدلة, ورياح الزمن تصفر, وأمواج الرمال تتحرك زاحفة نحو واحاتي, أقف بذهول متسائلا: كم يا ترى كان على الضوء أن يقطع مسافاته كي يصلني بعض وميضه ؟!

لطالما أرتني أمي أيام دراستي الابتدائية والإعدادية جمال الفجر وابتهاج الصباح.. كانت تستيقظ لصلاة الفجر مع أول أذان للديك، وكانت تدربنا على مكافحة الحياة لفرض ذواتنا من خلال اللجوء إلى الله, كان لديها الإحساس العميق بمدى ما يشكله القرب من الله من حالة حضور سوي للإنسان في واقع الحياة, وما يمنحه من قدرة على الحياة الكريمة .

كانت تقول أمي: صلاة الفجر يا ابني خير ورزق وبركة، ورغم كل تكاسلي كنت أكافح قسوة البرد؛ كي انتصر على رغبة الدفء .

وبالفعل كنت أحس بجمال الإشراق النفسي لصلاة الفجر وبالتيسير الجميل, وبالهدوء الأنيق الذي يتخلل مسامات نفسي وجسدي وانطلاقة روحي وذاكرتي .

كانت تقول لي: كن ذاكر دروسك بعد الفجر, المذاكرة بعد صلاة الفجر "حسينة" يا ابني, تأمل جدك محمد ما يقرأ القرآن إلا بعد صلاة الفجر!

كنت أفعل ذلك فيما هي تسخن كأس شاي أشربه, وتقدم عند طلوع الشمس قرص فطيرة طازجة وساخنة كاستدارة الشمس وإشراقها.. وحين تشرق الشمس تحمل معها كل جديد من تفاؤل وأمل ورضى وخير للناس! فما أجمل أن نستقبل الصباح ونحن على ثقة أن اليوم سيكون جميلا, بإذن الله نضع قليلا من الفرح فوق فنجان من الحياة ننثر على سطحه بعضاً من التفاؤل، وننطلق نحو أعمالنا وتحقيق أهدافنا بثقة وأمل وابتسامة مشرقة.

والفجر مدرسة للروح وغذاء للعقل والذاكرة, وكلما كان الإنسان أكثر صلة بالله من خلال هذه الصلاة زادت قدرته على الاستبصار والرؤية والاستشراف.

إن الصلاة وخصوصا صلاة الفجر تمنحك الإحساس الكبير بالقرب, وكلما سجدت زادك السجود طمأنينة, وبدد قلقك ومخاوفك وسط التحديات, وتشعر بجسارة الأسود وقوة قلوبها .

وكلما قرأت القرآن بوعي نمت فيك أحاسيس السلام والوئام والطمأنينة، وتجدد فيك عزم الأقوياء, وتبددت مخاوف الشيطان ووعوده بالفقر وأوامره بالفاحشة .

الانعتاق من رهبة العنف التي تنتجها آلة الغباء المبثوثة حولنا يتمثل في العودة إلى منابع العزم والقوة والتحدي إلى منابت الخصب النامية بالروح الجسورة إلى القرآن وآياته إلى استكناه تعاليمه واستمداد طاقة الثبات والصبر منها .

وكلما اقتربنا من القرآن بوعي وتدبر تبددت الأوهام المخيفة من حولنا, وتصاغر صناع العنف والموت في عيوننا وانطلقنا بشجاعة وقوة نبث وعي الحياة والحرية فيمن حولنا حتى نراكم قوة الحياة التي ستواجه حتما إرادة الموت.

الارتباط الدائم بالقرآن يحقق في الذات الانسانية الإيمان الراسخ وسلوك مسار الاستقامة الحقَّة المفضية إلى رضوان الله والحياة الطيبة .

العيش مع القرآن سلوك ثابت للإنسان المؤمن الذي يتغيأ باستمرار نشدان الحقيقة من منبعها وأصلها الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه أو من خلفه .

متأثر جدا أنا بشخصية أمي !! فهي ذكية رغم جهلها الأبجدي والمعرفي, قوية رغم أنوثتها, شهمة رغم فقرها، وصبورة رغم أن الحياة حاصرتها بقسوتها من كل جانب، كانت تمتلئ بالأمل رغم هبوب عواصف اليأس, كانت جبلاً يعصمني من البؤس واليأس، ظلت محتفظة ببطانية "أبو نمر", وراديو "أبو عود" قديمة وأصيلة في شنطة كبيرة, وبعض قدور, وحين كنت أسألها: لمن ستبقينهن يا أمه؟ تجيب: حتى يعود أبوك؟ وأين أبي؟ قالت: في الجنوب شلوه المخربين! كانت وفيَّةً جدا, وهي تأمل عودة أب غائب لا ندري عنه شيئا: أهو حي أم ميت إبان الثمانيات .

كنت صديقاً وفياً، وفتى يعارك رغم إدراكه أنه سيخسر وينهزم, كنت أقبل الخسارات والهزائم على أن أُوصف بالجبن, وكنت أتحمل عظ أسنان من أتعارك معهم دون أن أبدي أي شعور بالألم !! فقط يكشف الليل عن وجعي وآهاتي, فتقول لي أمي بلهجتها القروية: "مو بك وارداد؟ أنت ومن تضاربت؟ كنت لا أخبرها, وأكذب عليها أنني سقطت حين كنت أجري, فيما ختم الأسنان مطبوع على كتفي كوسام شرف في معركة خاسرة .

عشت في قرية "الصريم " التي تقع في عزلة الحشاء التي كانت تابعة لمحافظة تعز قبل إلحاقها بمحافظة الضالع عام ١٩٩٨م ؛فترة طفولة ممتدة وجميلة عند أخوالي "ال الجنيد " تخللتها حياةٌ جبلية صعبةً وشاقةً لكنها نقية ، وفيها كنت أرعى غنم جدي "محمد " والد والدتي -رحمه الله- حين كنت أقطع مسافة ما يقارب ١٣كيلو متر أنا ورعد أخي مشيا على الأقدام من منطقة "شذان" إلى قرية" الصريم"كي نزور أمي التي كانت تمنع من العودة إلينا بسبب جدي لأنه كان يعتقد أنه لم يعد داعٍ لبقاءها بعد أن ضاع والدي بداية الثمانينيّات من القرن الماضي في الجنوب حين التحق برفاق الجبهة الاشتراكية الدموية التي كانت تطلق على نفسها الجبهة الوطنية وتتبنى الفكر الماركسي كفلسفة حياة وتقدم وعدالة اجتماعية مزعومة ، والصريم قرية أشبه بقرية " الصنافر " عبارة عن بيوت متلاصقة مع بعضها مصنوعة من الأحجار ومصهورة بروث البقر والحمير المجفف الممزوج بالتراب كإسمنت بدائي وهي تقع وسط منطقة جبلية مرتفعة تطل على قعطبة والعود والضالع وترى منها جبال مريس والعود منتصبة أمامك بزرقة خلابة وكان ينتصب دار لشخص

من سلالة الهاشميين وسطها بكبرياء سلالي عتيد فقد كان أفخم دار في عزلة الحشاء آنذاك ، طريقها صعبة ووعرة وخطرة لكنها مليئة بالاشجار والنباتات النادرة ، كنّا حين نذهب الى هناك نعرج الى بيوت للسادة الذين يزعمون بأنهم هاشميون ينحدرون من سلالة النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم في منطقة يراخ الذي ينتصب فيها جبل يراخ بكبرياء قديم وتسكنه النمور السيلانية الشرسة والقرود وبعض الذئاب والضباع ، لنأكل الفطيرة اللذيذة المصنوعة من الدخن والذرة ،ونحتسي الشاي ونلعب في مياة غيل "يراخ " الرقراق الذي تتدفق مياهه من جبال محافظة إب ،لكن رَغْم أن أخلاقهم جيدة كانوا يستبطنون إحساساً بالتفوق العرقي بوصفهم سادة ، كما كان يجذِّر بعظهم الخرافات، ولكن كان منهم أيضا الطيبون المتواضعون ممن كان ينتمي إلى حركة الإخوان المسلمين كالأستاذ الأكاديمي محمد اسماعيل الوجيه الذي كان لا يُؤْمِن بنظرية الاصطفاء السلالي ويرى الجميع من منظور إسلامي خالص انطلاقا من وحدة أصلهم الإنساني وعبوديتهم لله وحده ،وكنت التقي فيها بشخصيتين شكلتا رؤيتي الفكرية وتوجهاتي الاسلامية بأخلاقهما كالأستاذ محمد صالح إسماعيل الحالمي والأستاذ عبدالفتاح الأهنومي وهما شخصان يحضيان باحترام اجتماعي وتأثير طيب على الناس ، كما كنّا نعرج بعد يراخ على منزل الجدة "زهرة " في نقيل العريفة وهي كانت قريبة لجدي وجدتي والداي والدتي ونشرب قهوتها الممزوجة بحليب الغنم ونأكل فطيرها اللذيذ المصنوع من يديها المكافحتين بشرف ..ونشرب ماءها البارد

المسقع على هبوب الريح الجبلية النقية ، كان ذلك منذ ٣٠عاما مضت من عمري .

ذات مرة قلت: "يمكن للمرء أن يتعافى من جرحه, لكنه لا يتعافى من ذاكرته بسهولة، فالألم يبقى في الذاكرة أثرا لا يزول .

إن الطريقة الوحيدة للتخلص من ألمك هي أن تتخلص من ذاكرتك, وهذا صعب, فأنت بحاجة إلى شيء من الزمن يؤلمك؛ كي تتعلم منه؛ لأنك حين تمحو ذاكرتك تمحو خبراتك وتحتاج إلى أبجدية معرفية جديدة لمواجهة الحياة.

حين عاد والدي من جنوب الوطن، عاد شخصا مقهورا, لقد مارس رفاقه وبنو عمومته الذين كانوا قيادات في "جبهة التخريب" ضده قهرا وإقصاء, غذوا وعيه بالخرافات العلمية الاشتراكية, ومن شريان فلسفة ماركس كان يتغذى والدي جحيم الفكر وخراب الوعي والضمير، لم يكن أمام أبي سوى أن يفرغ سنوات من القهر فينا نحن أبناءه ضربا وقهرا وطردا وتسلطا وتخليا عن مسؤولياته نحونا كأب، كنت أدرك حجم التغييب للوعي والقهر الذي مارسه رفاقه ضده ٩ سنوات كانت كفيلة بتغيير والدي ومحو عاطفة الأبوة ومشاعرها من قلبه وضميره.. عاش في جنوب الوطن وعشنا في شماله أشبه بالأيتام, كنت أتمنى أن ألفظ كلمة أبي حين كنت أسمع الأطفال يلفظونها بمشاعر جياشة .

كان يريد أن يصب الفكر الاشتراكي في وعينا صبا, لكنه عجز لم تكن عقولنا تتقبل الأفكار بسهولة؛ خصوصا أنا, كان لي عقلٌ عصيٌّ على الترويض, عقل متسائل لا يعتنق فكرة إلا بعد أن يدخلها في معمل التفكير الفاحص

ومختبر المعرفة والتجريب؛ وبسبب ذلك أوغل والدي في قهري كثيرا, تشردت وكنت أتحمل مسؤولياتي الذاتية في الدراسة والمعرفة, صارعت بإيمان وثقة بالله, وتمسكت بحقي في أن أكون حرا في خياراتي واعتناقاتي الفكرية وتوجهاتي السياسية، لكن تعلمت شيئا واحدا من تجربة كهذه – وهو: لن أربي أبنائي على القهر، سأربيهم على الفكر.. فالقهر يضمن طاعتهم على مضض, لكن الفكر يضمن نجاحهم في الحياة، لا أريد لهم طاعة عمياء لي، فالضريبة هي انكسار أرواحهم, وهي ضريبة بشعة ستشوه أرواحهم للأبد, ولكنهم سيعيشون أحراراً, وسأسهم في عملية توجيههم بأسلوب لا يرغمهم؛ لأن القناعة خيارٌ وليست إجبارا .

كان زواجي الأول من ابنة طبيب لا يمتلك أي موهبة حقيقية سوى أنه وجد في مجتمع قروي يبجل المظاهر ويحتفي بالأشكال, سطحي في نظرته ولا يمتلك أي معرفة حقيقية، ولا أدري كيف قادتني الأقدار إلى الزواج من قابلة فشلت كثيرا حتى تحولت إلى مخبرية تمتهن التوليد، لكني أحببتها فعلا كما أحبتني .

سألتها ذات مرة: ما الذي أعجبك فيَّ ؟!

فأجابت: قدرتك على محادثة قلبي واستكشاف ما يخفيه، لديك أحاسيس واستبصارات نفاذة, وكلماتك لا أستطيع مقاومتها, أجفل أمامك حين تحدثني عن الحب كمهرة جريحة .

ثم ماذا - سألتها-؟

ردت: قيمك لا يمكن أن يقاومها العبث, والسقوط يتلاشى أمام وهج حضورك, فحين أراك أشعر بأن لك كينونة فريدة, أين صغت ذاتك بكل هذا العلو الذي لا يدانيه غيرك ممن كنت لا أمنحهم قلبي كما أمنحك؟

قلت لها: الله أحبني هكذا اعتقد وأظن به؛ ولذلك حين أحبني جعلك تحبينني وتفتحين مغاليق قلبك الصدئة بسهولة ويسر.. القبول وضعه الله لي في الأرض كما وضعه لي في قلبك، لست جميلا إلى الحد الذي أبهرك به, لكن قلمي أجمل حين يكتب, ولساني حين يتحدث يدهشك ويأسرك في دائرته, حضوري البسيط الفقير، كما أن لي قلبا صادقا لا أستطيع مغالطته!

ثم سألتها مرة أخرى: ما هي أجمل لحظة في حياتك؟

ردت: "أنت اللحظة التي توقفت عندها كل لحظة, كان لحياتي في وجودك معنى, كنت أشتاقكَ رغم كل غياب تمارسه؛ كي تظمئ اشتهائي إليك, أنت فلاح يعرف كي يقلب تربته ويخصبها".

قلت لها: أنا يمني واليمني أصيل يقرأ مواسم التخصيب والحصاد, ويدرك كيف يتعامل مع أرضه؟ وكيف ينضج قدرتها على الإثمار؟ كنت صادقا معك التصق بك حد شحنك بأصدق الأحاسيس وأغذيك مني، صحيح أنتِ مجدبة لا تنبتين كلا ولا عشبا, ولا تمسكين ماء، لكني كنت أحاول قدر الإمكان أن أخرجك من حالة القيعان والمستنقع إلى حالة الأرض القادرة على إمساك مائها؛ كي تنبت الحياة في أحشائها, وكي تبتهج بما نبت فيها.

ثم أردفتُ: لم تكن الحياة يوماً مرهونة باللحظة التي نملك, بل هي تسير في كل الاتجاهات التي لا تدرك اليقظة, فالحياة إما أن تكون لك، وإما أن

تكون لها.. قد نفترق لأن قدري أن أعيش محبوبا بالمعنى الذي يجعلني كريما حرا، أحاول تحرير وجودك من هذا العبث؛ لأن الحب حريةٌ وليس قيداً، وحين يصبح الحب قيدا فإن من أولويات الأحرار أن يكسروا هذا القيد العاطفي الخطير !

ردت علي: لمن تتركني؟

أجبت: للقدر وإياك أن تختاري أنتي أو يختار أبوك لك؛ لأنك ستقعين في سوء اختيارك أو اختياره, فدعي أقدار الله هي من تختار لك من تقضين ما تيسر من حياتك معه، وإذا كان ولابد أن تختاري فاختاري من يقترب مني إذا كنت تعتبريني المثال الذي لن تجدي مثله بعد كما قلتِ ذات يوم !

قالت وهي تضع قبلة في جبيني: أُريد أن أهرم معك, أن تمسك يدي وأتبعك سنيين طوال دون أن أدرك حتى المسافات, أريد أن أحتضنك وأن تزرع قبلة على شفتي, ونحصدها طفلاً يمشي على الأرض !

رددتُ عليها: الأرض عاقر ولا يمكن أن تنبت، نحتاج إلى معجزة نبي حتى يحدث ذلك !

ليتنا لم نلتق -قالت- : ألعن كل صدفة أخذتني إليك !

أجبتها: هذا الفرق الكبير بيني وبينك في نظرتنا وفلسفتنا للحياة, أنتِ تعتبرين الصدف هي ما قادتني إليك, وأنا لا أؤمن بمنطق الصدف, أنا أؤمن بقدر الله، قدَّرَ الله أن نلتقي, وقدر الله أن أكون معك هنا, وقدر الله أن نفترق، تلك هي فلسفتي الأصيلة النابعة من إيماني أن الله لم يخلق الكون عبثا {إنا كل شيء خلقناه بقدر} !

كان صوتي دائما عميقاً وليس عاليا، حين أحدثها أهمس لها بعمق, فأحرك أعماقها, وأثير أعاصير أشجانها النائمة, كنت أدرك أن المرأة تتذكر الرجلَ ذو الصوت العميق أكثر من الرجل ذي الصوت العالي, وأن المرأة تكره رائحة السموم, وتعشق روائح العطور وإن كانت بسيطة، لكن أكثر ما يثيرها هي رائحة الذكريات !

ولَمَ الفراق إذاً - سألت؟

رددت: كان الانسحاب حلاً حين بحثت عن جذر المشكلة بيننا.

أجابت: ولكنك لا زلت قادراً على جعلي أقشعر كلما لاح طيفك في سمائي !

لو كنت قادرًا على إخراجي منك لفعلت, فالمسألة بيد قلبكِ وحده, أما قلبي لم يعد قادرا على فعل شيء سوى أنه أضحى خاليا في حالة تهيؤ لمن يشغره بذات الصدق الذي يحمله على الأكثر !

ذات مرة قلت لها: مستيقظٌ في ذاكرتك حتى إذا ما نسيتِني ماتت أشواقك, وانطوى جسدك على الخواء المخيف، جئتك جسدا فنفخت فيك من روحي الحياة، قلتِ لي يومًا: أنتَ الذي أشعلني وأحيا الأحاسيس النائمة فِيَّ وفتق أملي، أنت الذي علمني أن الحب أكبر من حاجة الجسد إلى الجسد، رغم أنك أرويتني جسدا وروحا .

قلت لها: أنا رجل سقاء كان يتمنى أن يكون حدائقيا في بستان أميرة لا تشيخ أبدا، لكن أحلامي لا وجود لها في الحياة, أحلامي وطنها الجنة !

كنتُ حين أخلو بها أعبر بفمي تضاريس الجسد الضامر الذي بدأت تغزوه ملامح الشيخوخة، قلت لها: رغم أنك لست طرية, لكني أدرك أن كلماتي تمنحك عافية الجسد, وتردم التجاعيد الناشئة، أدرك أن الزمن فاتك، وأن ثمة مواعيد أخرتك عن موعد القطاف حتى أينعتِ وكنتُ الحصاد الشرعي الأخير الذي أومض كنجم منير في أقاصي ظلماتك، ليمنحك عافية الاطمئنان, ويحكي لك عن سر جمالك الكامن في روحك، ذلك الذي عميت عن رؤيته عيون المفتونين بالأشكال .

كنت أريد أن أغير نمط حياتها وتفكيرها, أريد أن أشكل حاجزا بين ماضيها وحاضرها؛ لأرسم لها مستقبلا يليق بإنسانيتها وكرامتها، لكني نجحت في جزء من ذلك, ولولا أن إحساس بيئتها بأن ثمة تغيرات بدأت تطرأ عليها لكنت أنجزت بفاعلية مهمة تغييرها، فرداد رجل يتطهر والمتطهرون لا يستطيعون الانسجام مع بيئة الدنس والانحراف, بل إن هذه البيئة تلفظهم لمجرد إحساسها بكينونتهم الداخلية وما تنطوي عليه من نقاء وصفاء وحب للسمو وتمسك بالكرامة والقيم، ظللت أؤصل قيمي فيها؛ منطلقا من إدراك واقعي أن الإنسان إذا ما تعرض لوهج النقاء تظل ذاكرته مشدودة إلى سموه ونبله، وأنه بمجرد أن يضع بذرة الفكرة في أحشائها ستحمل قيما نبيلة تمنحها إحساسا لا ينتهي بجمال الحياة حين تعاش على المبادئ والقيم .

كنت أوقظها لصلاة الفجر بعد أن أكون قد قمت ثلث الليل الأخير كي أدعو ربي أن يهيئ لي من أمري رشدا، كانت تدرك أنها بجانب رجل قد لا يستمر معها؛ لأنه ينتمي إلى زمن ليس زمنه وبيئة ليست بيئته، وكانت تدرك

أن قدرها معه كحبيب لن يستمر؛ لأن النجوم تتنكب مدارات الكواكب المعتمة حتى لا تكسب بعض خواصها الرديئة، لقد كنت أحاول قدر الإمكان أن أعيد تخطيط دقات قلبها؛ لتنسجم مع نبض قلبي وضبط إيقاعه ليصبح إيقاعا واحدا, ولقد نجحت, لكن الجنوح البيئي أكبر من أن يقاومه برغم حب يتشكل في صميم لوثة اجتماعية موغلة في الانحراف وموهبة التخفي عن أعين الناس؛ كي يرونهم كرماء ولا مكان للكرامة في نفوسهم وإن أبدت مظاهر الترف نوعا منها, فالناس تبجل الأشكال وتختزل الكرامة في المأكل والمشرب والملبس وليس في سلامة الضمير واستقامة المسلك وسمو الروح, أو في السلوك الأخلاقي الظاهر والخفي، قلت لها يوما جادا على شكل مزاح: في الحياة بدائل كثيرة, قد نفترق, وقد تجدين من يتفق مع مزاج والدك؛ لأن إراداتك لم تعد لك, بل مع والدك, ولقد حاولتُ كثيرا التأثير في هذه العلاقة وفصمها؛ كي تكون إرادتك معك أو معي لكني لم أستطع, البيئة كالجاذبية لا يمكن الانفكاك عنها بسهولة, وتربية صاغتك على هذا النحو لا يمكن التخلص منها في بضعة أيام.

ردت عليَّ: "بعض الأماكن ترفضَ البديل حتىَ لو ظلت خالية إلى الأبد".

كنت أدرك أنها تحبني, وأني نحات يجيد فن تأصيل ذاته في القلوب من العدم، وأني حين أتيتها لم أكن فيها, لكني سكنتها وسأسكنها إلى الأبد، قد تساكن بعد رحيلي غيري, لكن مساكنة جسدية وليست روحية وقلبية, مساكنة تعبر بها ما تبقى من العمر؛ كي لا تحس بالوحدة حين تكون لوحدها.

أنا الذي أشعل شهوتها النائمة حين قالت لي مرة: "أحييت رغبتي من العدم, لم أكن قبلك أشعر بالرغبة كما أشعر بها الآن معك".

قلت لها يوما: ما أخشاه عليك أن تموتين مسمومة، فاستغربت مني قولي ذلك قائلة: وكيف عرفت؟ قلت: حين لا تمتلك المرأة القدرة على الاختيار ينحرها خيارها السيئ, وما أخشاه عليك يوم أن تسيئي الاختيار فتموتين مسمومة !! ثم مازحتها قائلا: قد تتزوجين بعدي لا قدر الله يوما ما بائعَ سموم, فتسوء العلاقة بينكما, فيلجأ إلى دس السم لك كنوع من الانتقام حين يجد أن علاقته معك كانت قائمة على المصالح, وأن زواجه بك كانت مجرد صفقة تجارية فاشلة، عليك أن تحققي رغبته في أن يصبح رجلا ثريا وإلا فإن السم هو أداته التي يستطيع من خلالها أن يتخلص منك حين لا يجد أي فائدة من ورائك .

كنت أراهن دائما على تقلب الأيام, وأن الثابتين لا يمكن أن يكونوا تجار قيم؛ لأني رجل قيم تربى في مساكن رجال القيم, وأدرك أن سر كرامة الإنسان هي في تقواه واستقامته وما ينطوي عليه من يقين بأن الحياة هذه آنية فانية لا يمكن أن تستقر على حال أيا كان, وأن امتلاك الإنسان لها هو نوع من العبودية الخطيرة؛ ولذلك قلت: حين أحببتني لم أبالغ في حبي لك منحتك قليلا من الحب؛ كي أظفر بالكثير من الحرية، كنت أحبك بلساني كثيرا فيما أحبك قلبي إلى الحد الذي لا تستطيعين أن تمتلكيني, ولكن إلى الحد الذي أبقيك في دائرة وجودنا الشرعي المعتبر حتى لا تصبح لعلاقتنا الشرعية أي معنى !!

كنت رجلاً لا يمنح قلبه كاملا إلا لمن يحمل ما في قلبه، وما في قلبه يقين بالله كبير أسقته آيات القرآن, وعمقته تجارب الحياة، وألهمت مسيرة دربه المعاناة وجملة من التحديات التي واجهها بصبر؛ قابرا في الأعماق يقينَ أن الله لن يضيعه، ولازال على درب الاستقامة قابضا على جمرها المشتعل بقوة, وفي يقينه أن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون.

ذات مرة قلت لها: لا يأس أبداً, ما هي الحياة هذه؟ هي صراط ممتد بين حياتين, وهي محنة شاقة, وهي ابتسامة مشرقة, وسراب زائل, ويأس وأمل, وكرٌ وفر, وميض نور يشع فوق آكام من الأقذار, نبعٌ صافٍ ينساب بين القبور والخرائب, ضمائر حية تتعلق بأسرار المجهول, ثم لا تلبث أن تتساقط في حومة سحيقة مملوءة بالجياع والأنانيين والطغاة والجلادين.

هي هكذا مثلك, تبدو جميلة أنيقة وبريئة, وسرعان ما تتلوث بالضعف والمرض والهزال .

هي ساحة معركة سلاحها الصبر والإيمان .

ومهما بلي الإنسان بها بحب أو فقر أو خيانة أو غدر لا يهم ف{عسى أن تكرهوا شيئا وهو خيرٌ لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون}, ثم ألا يصح أن تكون البلوى سببا في يقظة روحية؟ ألا يصح أن تكون مادة تنشيط وتجلٍّ للمواهب والاستعدادات النفسية؟ أو حتى مجرد تجربة نافعة في الحياة العملية؟ ثم أين الإنسان الذي لم تصدعه الخيانة, ولم تذله الحاجة, ولم يغلبه الظلم, ولم يمر بعلة, ولم يضايقه الملل؟

أين الإنسان الذي لم يضنه الفشل، ولم يساوره الخوف، ولم يشقه الضعف ولم تقلقه الحسرة؟!

المهم الحياة هكذا, أجل وعمل وأمل, أجل الأمس وعمل اليوم وأمل الغد.

لا لذة لها مع القلق، ولا قيمه لها مع الفشل, ولا معنى لها مع الحسرة والقنوط.

هي صراع دائم بين قوى الخير والشر لا ينجح فيها إلا المجاهد الصابر، هي قوة معنوية, ودفعة روحية تعلو على المادة بأسلحة ثلاثة: إرادة نافذة وثقة بالنفس, عقل مدبر وكفاءة منظمة, سريرة صافية وإلهام صادق.

إن تنمية الموهبة عملٌ لا يحتاج إلى الثراء, بل يحتاج إلى أن تلتفت إلى ما يجعلك أكثر ثراءً في الوعي والضمير والإحساس وقدرة على الحياة بمستوى معرفي لائق وما يلهم عقلك ويرقى بوعيك, إن الإنسان الذي يستطيع أن يمسك قلما ليكتب شيئا مهما وجديراً: هو الإنسان الذي يحاول أن ينتج وعيا جديدا, وينشئ مجتمعا متحضرا, هو الإنسان المهموم بشيء يستحق الهم.

عام ٢٠٠٩م ضاقت بي الحياة وكنت أتنفس همي ألما ومعاناة, كان نظام الرئيس صالح قد بلغ ذروته في الفشل مع قبضة استبدادية خطيرة, فكتبت مقالا بعنوان "حين يضيق الوطن يغدو الرحيل أمنية", نشرته في موقع "التغيير نت", قلت فيه: أسوء شيء أن تلتفت فلا تجد إلا واقعا على غير ما يجب، لا مستقبل, ولا حاضر, ولا ماض يدعمك بذاكرته؛ كي تنطلق، حين تجد أنك في وطن محاصر فيه من كل جهاته وتوجهاته، وطن لا

يستوعب وجودك كانسان تنتمي إليه، وتشعر بأنك جزء من كينونته، تتمنى لو ترحل كنورس مهاجر، بعيدا بعيدا حيث تنفتح لك آفاق جديدة تستعيد فيها قدرتك على أن تصنع ذاتك صناعة متقنة تنتج الأجمل, وتعرف كيف تصاغ الحياة كما يجب .

الوطن ضيق، ضيق يتسع للموسعين المتوسعين على حسابنا نحن الضائعين الذين نكافح من أجل تكوينه كما ينبغي بشرف .

الوطن غدى مشفر,مستقبله بالغموض يجتاحه كساح الخيارات المؤجلة لإنقاذه، يقذفنا الواقع إلى فك أنياب لا ترحم، نستحم كل يوم بجحيم البؤس المتسع، فيما ترفل القلة بنعيم الوجود القارض لأحلام الناس, ورغيف عيشهم, وأمان وجودهم .

يراوح الوطن بين هذا وذاك, فيما يكون عليك أن ترى أكثر مما يرى الآخرون، تظل هناك بين فكي واقع متوحش لا يرحم, واقع يراوغ قدرتك على إدراكه، ما تستطيع أن تنجزه ليس إلا إعجازا ناء به كاهلك جهدا ومشقة، ومشنقة وطن مشنوق من الوريد إلى الوريد .

تمر الأيام على انتظار أن يغدو وطنك وطنا، تمحي من خارطة الوجود رويدا رويداً، غير أنك تبقى ممسكا بقلم وورقة، تنثر أفكارك في قيعان لا تمسك فكراً، ولا تنبت خيراً، غير أشواك قديمة تتجدد وتستعيد أسوأ ماضيها.

أنت صحيح تدرك أي سخرية هنا يتلوها المكان الجامد أمام ناظريك، تدرك أن ما يتجسد نقيض ما يحلم به الكثير وتحلم به أنت، وأن الواقع هو

هو بكل ما فيه من عفونة لا ينكرها إدراكك، عليك أن تمارس مهارة السباحة فيه؛ كي لا تكون عرضة لغرق أخرق يحاول إيقاعك في مصايده المحاكة بمكر وعناية فائقتين .

احتفظ بعقلك؛ لأن العقل المستيقظ هو القادر على تجديد إمكانات التحدي لديك، تحدي القدرة على أن تسلك ما يجعلك في حالة اجتياز مستمر لغموض الدرب الذي تعبره ويعبره الكثير، والمعرفة تجعلك أيضا مدركا لكل ما تجهله ويستصعب أمامك، لكن الوطن حين يضيق يغدو الرحيل أمنية .

حين قرأت هذا المقال قارئة يمنية مثقفة مجهولة, اسمها "بلقيس عبد الغني" ردت عليه بكلمات قوية أعادت إلى ذاتي المنكسرة روح التحدي والإقدام والصبر, وجددت فيَّ عزم المقاومة, قالت في ردها الذي لازلت أعتز به حتى اللحظة: العزيز رداد, حفظك الله ورعاك، وأمتعنا دائما بقلمك وأفكارك, أقرأ بإعجاب وإكبار كل مقالاتك, وجميعها في نظري رائعة وعميقة, فأنت تكتب بإلهام وتجلٍ، وواضح جدا أن الله قد أكرمك فوهبك هذه الرؤية النافذة, فسبقت سنك وزمنك، وأسأل الله لك دوام التوفيق, أُكتب إلى بريدك مباشرة؛ لأني أرسلت التعليق التالي إلى موقع التغيير مرتين بعد قراءتي لمقالك الموسوم بـ"حين يغدو الرحيل أمنية"، وللأسف فإن التغيير لم ينشر التعليق, وربما تكون أعرف مني في الوقوف على السبب، وهذا ما كتبت: "لا تفكر بالرحيل يا رداد، لا يا رداد، إياك إياك أن تفكر بالرحيل، كل ما عليك هو أن تستجيب للنداء الصاعد من أعماقك؛ لأنه نداء الضمير ونداء الواجب..

ألم تقل للتو: "احتفظ بعقلك؛ لأن العقل المستيقظ هو القادر على تجديد إمكانات التحدي لديك، تحدي القدرة على أن تسلك ما يجعلك في حالة اجتياز مستمر لغموض الدرب الذي تعبره ويعبره الكثير، والمعرفة تجعلك أيضاً مدركا لكل ما تجهله" ؟.

فاحتفظ يا صديقي بيقظة عقلك وضميرك، وإياك أن تعتقد ولو للحظة واحدة أن ما تكتبه لن يؤتي أكله, وأنه سيذهب أدراج الرياح، لا, يا رداد، إن ما تكتبه يخترق الحجب المظلمة كشهاب من نور ونار, وما تكتبه يخاطب العقول, ويستقر في الضمائر, وسيثمر - لا محالة - فلا تستعجل القطاف، ولا يدفعك أعداء الحرية وأعداء الحياة وأعداء الإبداع، وأعداء النجاح إلى اليأس، أو التفكير في الهجرة, فهذا هو ما يريدونه تماما، إن معادلة إبقاء الأوضاع السيئة في اليمن وفي المنطقة العربية كلها، تقوم على مبدأ بسيط جدا، ولكنه فاعل جدا ومدمر بلا حدود، وهذا المبدأ هو: "إفراغ المنطقة من قوى التغيير الايجابية أولا بأول، بحيث لا تتراكم أي قوى تغيير جادة, وتصل إلى الحد الذي تشكل معه تياراً يجرف أمامه كل السوء القائم؛ ولكي يعمل هذا المبدأ الجهني بكفاءة، هناك اتفاق ضمني بين شياطين الداخل وشياطين الخارج على رصد ومحاربة وتطفيش كل العقول الخلاقة والضمائر الحية، التي هي أساس أي تغيير، فإذا عجزت أساليب الاحتواء والبيع والشراء في كسب هذه العناصر، لا يبقى إلا تهميشها، أو قمعها ومضايقتها لدفعها إلى الرحيل، وهكذا دواليك جيلا بعد جيل".

فقل لي بربك بمن سيتم التغيير ؟ مكانك حيث أنت يا رداد !! وتذكر أن أكثر ساعات الليل حلكة وظلاما هي الساعة التي تسبق انبلاج الفجر مباشرة.. حفظك الله ورعاك وجنبك كل سوء .

حين أتممت قراءة الرسالة قلت في نفسي: ابتسم يا صديقي, لم يعد ثمة ما يستحق التجهم، هي الحياة تحديات ونضال وتوليفة من الإعاقات التي يجب أن تتجاوزها بثقة القادرين على قهرها والإتيان بما لم يكن في الحسبان.

أنا يا صديقي أمتلك القدرة على النفاذ إلى عمق الكامن, أعري المستبطن, أحرك الجمود, واغتال اللحظة المربكة بيقين القدرة القاهرة التي تحيل كل منطق صلد إلى شيء قابل للتشكيل والإعادة .

انبثق يا صديقي من قلب هذه العتمة نجما يُهتدى به، ساند المتعبين بكل وسائل الرفض لهذا الواقع الذي صنعه القتلة والسفلة وساسة فاشلون لم يجيدوا سوى فعل الخراب ومصير الموت، أرني يا صديقي قدرتك على صناعة التغيير بهدوء يشبه الإعصار القوي, زلزل يا صديقي عروش الكروش المنتفخة، وفخخ حياة المستغلين بأغلال القادمين من وجع الواقع، نحن هنا يا صديقي نترع البؤس, ولكننا نتعلم فن البأس, ونجيد حصار النفوس الرديئة بالكلمة وجسارة البعث الذي ينفخ الحياة في أجداث الموتى والمستلقيين على قارعة الطريق بلا حياةٍ ولا أمل.

الذي يقول لك يا صديقي: إن ردادًا ليس كما تتوقع هو واقع في خدر نفخ الآخرين ممن يرون في الأقلام المتفوقة خطرا يهدد مصالحهم, وينتزع مواقعهم التي شغروها لحظة إقصاء وتغييب ومضايقة أضاقت الخناق ولم

تستطع أن تنتزع منا إيماننا بأن هذا الوطن يجب أن يكون لكل أبنائه ومن فيه بلا تمييز ولا مفاضلات تزيح الإنسان إلى حافة الحياة ليبقى بلا حياة.

ذات مرة أخذ أحد الأصدقاء يعاتبني: يا رداد أنت قلم مبدع, لديك قدرة تعبيرية قوية, نفاذ في رؤاك, ومستبصر بعمق, تفهم أمورا كثيرة, ثم أنت كاتب قوي وقديم كنت أقرأ لك كثيرا فأندهش من أفكارك، لماذا لا تكن مثل فلان وفلان؟ وتحصل على حياة أفضل مما أنت عليه، تقدم في قناة، اعمل وستمتلك سيارة, وتبني بيتا, وتصبح حياتك أفضل أسوة بالبقية.

قلت له: يا صديقي ميزتي أنني رجل حر يكره البراويز والإطارات, وينطلق بحرية, وحين أحس أن ثمة قيد مادي أو معنوي يريد أن يحكم قبضته عليَّ ويتحكم بمسامات عقلي أتمرد عليه بقسوة وقوة, أفضل البساطة غالبا على مظاهر الترف التي تسلبني روحي وحريتي ويقيني وهدوئي وانطلاقي.

رد متذمراً: ألا ترى أن أنصاف الموهوبين يخطفون الأضواء؟

فأجبته: الألعاب النارية مهما كانت مبهرة ومضيئة لحظات وتنطفئ, ووحدها النجوم الحقيقية تبقى مضيئة في السماء يا صديقي .

هل ابتعدت عما كنت أود كتابته؟ لست أدري ! إننا لا نختار غالبا ذكرياتنا, بل تنساب إلى عقولنا وتملأ اللحظات الخالية من التفكير، إن الكتابة المقيدة بموضوع واحدٍ إطارٌ أتمرد عليه أيضا لا أستطيع الانصباب في قالب واحد, وعليَّ أن أواصل الحفر حتى اكتشف وأراكم كنوزي المبعثرة هنا وهناك, وأعيد صياغتها بطريقتي المعتادة المتمردة المتجاوزة للسياقات والأنساق الضابطة للأفكار، فأنا لا أكتب كتابا منهجيا علميا صارماً, ولكني

أكتب ذكريات ورؤى فكرية وسياسية وفلسفية لا تلتزم بشيء من تلك الضوابط .

إن الحديث بالقلم أفضل من ممارسة الصمت, لأن الصمت يتحول غالبا إلى لصٍ للحرية، فحريتنا غالبا يسرقها الصمت؛ ليمنحها للمستبدين, فإذا وجدت ذاتك في وضع يستدعي منك المواجهة فواجه بالكلمة, بالصوت, ولا تصمت؛ كي لا يسرقك لصوص الحرية كرامتك وإرادتك وحريتك وإنسانيتك.

وكن كل البشر دون أن تفرط في ذاتك, كن الكون كله دون أن تسيء لأي كائن في الكون، ومارس النقد في الحدود المقبولة والمعقولة, وغير من وضع الحياة ومجرى التاريخ، وحتى تتجنب الأشخاص العدوانيين والأنانيين، تصالح مع نفسك، ببساطة كن نفسك، ارحل عن عوالم الحقد والكراهية، شذِّب أخلاقك، ولا تهجو غيرك بغير دليل .

وإن رأيت الذنب حاول إصلاحه, ومن ستر مسلما في الدنيا ستره الله يوم القيامة.

ارحم الصغير والكبير، وتعالَ عن تفاهات الأشياء تسمُ روحك، وتتجلَّ الروحانيات بداخلك، احترم نفسك قبل أن تسأل الآخر احترامك .

إن واجبنا أن نقدر ظروف الغير بسهولة ويسر, وبلا تعقيد أو مغالاة، نصادقهم ونهديهم إلى الرشد، ونحترمهم مهما اختلفت المراكز والدرجات، فقد يأتينا أكبر النفع من أقل الناس مكانة, وقد نجد أصفى القلوب وأخلصها في أبسط الناس وأفقرهم. وما أجمل ما قالت زوجة أنس ابن مالك لزوجها أنس رضي الله عنهما: "قد يكون الخير كامنا في الشر" !!

يقول الحديث الشريف: "لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من الدنيا وما فيها" .

إن مجرد اكتسابك لقلب ٍواحدٍ لله، يزيد شعورك نبلاً, ويملأ نفسك بأشرف العواطف, وأشفّها عواطف الخير والرحمة والمحبة، ولكنك لن تستطيع أن تستميل قلوب الناس وتجني صداقتهم إلاَّ إذا جعلت أمورهم موضع اهتمامك قبل أن تجعل أمورك موضع اهتمامهم .

إننا نهرب من مواجهة الحياة, ونختار أن نعيش على الهامش؛ لأننا غير قادرين على التوقف عن شيطنة أنفسنا وشيطنة العالم من حولنا؛ لأننا غير قادرين على التفوق على الكبر في ذواتنا حتى نحب بلا مصالح، لقد أصبح الحب غير المقيد مذلة في زمننا هذا، والود غير المشروط بعائد غباء وسذاجة، لقد أصبحنا أضعف من أن نحب الناس من حولنا، إن النفوس الضعيفة وحدها غير قادرةٍ على الحب وعلى تجاوز الجروح والأزمات؛ لأنها ببساطة غير قادرة على تحمل ما يتبع هذا الحب للناس من صبر وعطاء.

إننا بحاجة إلى تجديد التربية وابتكار الأساليب القادرة على جعلها أكثر تأثيرا في صياغة الأجيال القادمة, إن الفطرة الإنسانية تتعرض للتدمير الممنهج, وإن الوسائل الإعلامية بمختلف أساليبها وتقنياتها استطاعت أن تخرج الإنسان من حالته السوية حين لم يُجِدِ التعامل معها بأسلوب ينفعه ويعلي من قدرته على البناء والنهضة .

إن الفطرة دائمًا تجيد الاختيار؛ ولذلك فهي المستهدفة دائمًا بالتدمير، وهناك محاولات خطيرة للخلط بينها وما يسمى بالطبيعة الإنسانية، فالفطرة

تختلف عن الطبيعة الغرائزية الإنسانية؛ لأنها خلقة ربانية أصيلة في تكوينه، وهي حاسة متفوقة في جعله يتجه نحو توحيد الله والإيمان به، يمتلك الحاسة الروحية التي تميز الحق من الباطل، والبر من الإثم, وتتفرس في الوجوه باكتشاف مستشف ومستشرف .

كذلك نحن بحاجة إلى الفكر التربوي الذي يقتحم مساحة النقص الناتج عن عدم التكامل؛ ليسد الثغرات, ويعمل على تقوية الضعف في البنية التكوينية, ويمدها بطريقة جديد لإدراك التحديات وما يتحرك في الواقع.

إذًا فالفكر التربوي أساسه القرآن أولا، فما لم يكن القرءان هو قاعدة البناء, فإن التيه في دوامة ما قيل دون ارتباط حيوي واع بالقرآن سيحدث نقصا تنتجه المقولات البشرية التي تحاول قدر الإمكان اختراق منظومة القيم؛ حيث تستقر في عمق المعتقدات الكامنة في الذات التي تشكل مسلك وسلوك الإنسان .

أعتقد أن بناء الحاسة التربوية السليمة المنتقية لأحسن الأفكار أيضا يحتاج إلى بنية تربوية قرآنية ونبوية متفاعلة, فلابد من إنتاج وصنع إمام المسجد الذي يتقن القراءة والتدبر والذي ينقل ذبذبات تفاعله مع آي القرآن إلى قلوب المصلين ومن يؤمهم، ولا بد من إنتاج وصنع المربي التربوي المتوازن الذي تراه يشتعل روحاً وهو يربي إخوانه، في الحلقات التربوية، ويغذي أرواحهم وعقولهم وقلوبهم بالحيوية والحياة التي مصدرها آي القرآن الكريم والسنة النبوية، لابد من تفتيق حاسة الانتماء اليقظ للفكرة؛ إذ إن الارتباط بالفكر يبقي العلمية الاتصالية والتواصي مستمرة، ولابد من إنتاج وتشجيع

الأدب الإسلامي الملتزم الذي يمتلك القدرة على تشكيل وجدان سليم، ويصنع خيالا سليما نظيفاً يتطلع دائما إلى ما عند الله, ويتعامل بأدب رفيع مع كل ما في الحياة. "فالأجيال لا تصمد على الثوابت، إلا إذا كان لتلك الثوابت الخاصية الروحية المتعالية والمتسامية عن النظرة المرحلية الضيقة، وعن رهانات النشأة الأولى" .

إننا بحاجة إلى بناء ضمير لدى الجيل يتغلب على وصايا الانغلاق, فالجيل الحالي يحتاج إلى احتواء فكره, وبناء مفاهيمه دون سلطة تقهره أو تسلب شخصيته .

إن التربية - عموماً - عملية بناء الفرد والمجتمع وفق صيغة قائمة على مفاهيم عقائدية وأخلاقية محددة, فإذا كانت التربية إسلامية وكان ارتكاز هذه الصيغة على مفاهيم الإسلام العقائدية والفكرية والمسلكية، فالتربية تقوي المناعة الذاتية، وتمنح الحركة فردا وجماعة حيوية في مواجهة التحديات، وإبداعاً في إدراكها، كما أنها تعمل على الوقاية والتحصين الذي يتجاوز محاولات الاختراق الفكري والتحوير العقائدي والقيمي وإنتاج المفاهيم المنحرفة والمشوهة؛ إذ إن ثمة تحالفات سياسية أفلحت نوعا ما في تسريب مسكونها الفكري والفلسفي؛ لتعمل على تحويل البعض إلى حاملات لأفكارها من الداخل، كما نجد أن المفهوم السياسي والنظرية السياسية غير مبنية على أدلة شرعية, وأن المفاهيم الشرعية والمناهج التربوية غير مرتبطة بالواقع السياسي أو ملاحظة له .

فقد اطردت – في المضمار السياسي- مساعي سلب الإرادة والتنويم؛ بغية جرف الفاعليات الحية عن أرضيتها الروحية؛ إخلاءً للميدان منها، وتسهيلا لتنفيذ مشاريع لا تتواءم وروحية الأمة؛ إذ إن ضمير الأمة ووعيها وبصيرتها التي تستشرف المستقبل إنما تمثله تلك العناصر الطليعية بإيمانها وبانحيازها للخير والعقيدة .

فالمقرر الشرعي الموثوق هو عين الحق والموضوعية, فكل مؤشر في الكتاب والسنة النبوية يرفد الرؤى السليمة التي تتفق مع الفطرة الإنسانية ورؤيتها المصونة من الانحدار فيما لا يتفق مع إرادة الله للإنسان في هذه الحياة، وتعاليمه التي جاء بها نبيه وحيا قرآنيا، فالنص المقدس - عند سائر الأمم- هو مجال الاستغراقات الروحية العميقة التي تستشرف من خلاله الآمال الكبرى، فالجماهير تنزع بأخيلتها إلى الإبحار في ربوع النص المتعالي تسترفد منه الأحلام المشوقة، وتلوذ به من الضوائق الضاغطة وتواجه به التحديات المختلفة؛ إيمانا منها بان للنص قداسته وحصانته التي تمنح من يلوذ به القدرة على المواجهة دائما .

ولن تزال أسس التربية وفقه التنشئة وعلوم الحياة المستقبل ناقصة وبدائية وساذجة ما لم ترسخ في ضمير الأجيال قابلية الاستجابة لحداء أهل النخوة القيمية، رجال الرهانات العظمى, أولئك الذين تصنع أفكارهم درباً نحو الخلاص الأكيد في مواجهة قوة الشر والاستغلال التي تسعى إلى تركيع الإنسان وتعبيده لذاتها ونزواتها المريضة .

إن التطوير التربوي لن يؤدي إلى نتائج سلبية تفكيكية للحركة الإسلامية كما يعتقد البعض, إنه يعمل على تقوية البنية الروحية والعقلية والفكرية والمعرفية, ويصنع الفرد الكلي القادر على خوض صراع الواقع والقوى المختلفة الفاعلة فيه, بوعي معرفي قوي يمكنه من تشكيل الاستقطاب النفاذ القادر على مراكمة أكبر قدر من العقول الوطنية التي ترى في الحركات الإسلامية المعتدلة أمل المستقبل وصانعة النهضة وبانية الدولة الوطنية المدنية الحديثة.

إن الإسلاميين في اليمن يمتلكون كل مؤهلات القيادة الوطنية, فلديهم فكر معتدل نابع من رؤية عقدية متوازنة تؤمن بمنطق السلم والحوار والتحضر والديمقراطية واحترام قناعات الشعب، وستظل دائما قوة الإسلاميين المعتدلين في فكرهم الذي ينطلقون منه؛ لأنه المؤسس للوعي النهضوي, والصانع للإنسان المقترب من المثالية المنشودة إسلاميا؛ لتحقيق مجتمع مدني منتج وحر وفاعل وديمقراطي وناضج .

نتكئ على الحب حين نحاول النهوض، وننسى أن نسير بقدمين واثقتين إذا أردنا الفرح والحياة.. طبيعتنا الإنسانية بحاجة إلى التعاطف والتكاتف والتلاطف, نستطيع أن نتجاوز تحدياتنا إذا أحببنا بعضنا فعلا بصدق ومودة, "لا أحداً ينمو بحريةٍ في هذا العالم ويبلغ ملئ قامته من دون أن يشعر أن هنالك ولو شخصاً واحداً، يفهمه ويحبه" .

وكم هي جميلة وعظيمة ومنعشة تلك الخبرة التي يعيشها الإنسان عندما يتعلم كيف يساعد الإنسان ! وكم في عمق الإنسان من حاجة إلى أن يُحمل

على محمل الجدّ، وأن يُصغى إليه ويُفهم، لا معنى للحياة بدون تعاون وتكاتف ولا معنى لوجودنا حين نتخلى عن إنسانيتنا .

في الماضي كنت أعتقد بأنه كلما تقدمت حياة الإنسان أصبح لديه عدد أكبر من الأصدقاء, ولكن اكتشفت أن العملية ليست بهذه السهولة, فكلما كبر الإنسان تبلورت وتشكلت شخصيته أكثر, وأصبح لها حدودها وميولها الواضحة، وهذا يعني بالنسبة لي على الأقل أن عملية تكوين صداقة مع إنسان أصبحت عملية أكثر حساسية وتعقيدا، وأنا هنا لا أتكلم عن العلاقات الاجتماعية فهي كثيرة, ولكن أقصد الصداقة بمعناها العميق والدقيق، بما هي وفاء وتضحية صدق وصبر وإحساس وتنفس لهموم الآخرين.

إذًا فنحن حين نتقدم في السن تنضج خبراتنا, ونميل إلى حصر علاقتنا وانتقائها بشكل أفضل قائمة على قيم حقيقية, كالوفاء والصدق والمنفعة أيضاً؛ ولذلك فالأخلاء الحقيقيون هم الذين يعبرون بنا نحو ما تستقيم به حياتنا, ونحو ما تتأكد به قدرتنا على النقاء النفسي والروحي والمسلكي". إن المعنى الحقيقي لوجودنا يتمثل قبل ذلك في تحقيق عبوديتنا لله من خلال تحقيق الإيمان في ذواتنا ونفوسنا وسلوكنا, وإشاعة قيم الخير في كل دوائر وجودنا الإنساني, كما أن المعنى الحقيقي للحياة أيضا هو أن نتقن فعل شيء يمكن من خلاله أن نغير حياة الآخرين .

إن حركة الخير الحقيقية هي التي تمتد لتشمل الجميع, وتبحث بين ركام الواقع عن أولئك المطمورين الذين خذلتهم الحياة بقسوتها, فلم يكن أمامهم إلا

الضياع والانصياع لرغبة القسوة التي يمارسها المجتمع والحياة وما تنتجه من تحديات وقهر لا يتوقف .

إن اكتشاف الواقع وقراءته وإدراك القوى الفاعلة والمؤثرة فيه أمرٌ في غاية الأهمية؛ كي نكون على علم بمجمل التحديات التي تواجهنا, وما الذي يمكن إعداده وتجهيزه لمواجهة احتمالات الخطر أو المؤامرات, وكيف نتكتك حركتنا وصولا إلى تحقيق استراتيجيتنا الكبرى التي نشترك فيها مع مجمل قوى الخير التي بدأت تبزغ من صلب ماضينا الحضاري والعقدي والتاريخي العريق الذي هو إرثنا جميعا, فتركيا اليوم – مثلا - استطاعت أن تعي ذاتها أولاً, وأن تدرك حقيقتها التي انطوت ذات يوم على طاقة قوة إيجابية مكنتها من الريادة الحضارية, وأن تقرأ بمجمل عقولها الواعية ذاكرتها التاريخية التي صنعت منها ذات يوم قوة عالمية تحمل قيم الإسلام، واستطاعت أن تنقد ماضيها وتستفيد منه أخذاً بالأفضل والأحسن؛ كي تبني نهضتها, وها هي قد بنتها وهي تسعى جاهدة لاستعادة دورها التاريخي والحضاري من خلال تفعيل حركة القوة الواعية في مجمل وطننا العربي والإسلامي الكبير كأحد عناصر قوتها أيضا، لا أقول: إننا كعرب ومسلمين لن ننهض إلا بتركيا, ولكني أقول - وبدقة - لن ننهض إلا بتعاوننا وتكاملنا مع تركيا في سياق استعادة فاعلية أمتنا ودورها الرسالي والحضاري كأمة وسطٍ تحمل رسالة عالمية وإنسانية رحيمة بالبشر، لقد قلت أكثر من مرة: إن إمكانات العرب والمسلمين غير كافية ما لم يتوحد الجميع حول هدف استراتيجي واحد، وأنه لكي ننهض حقا يجب أن نعود إلى جذورنا العقائدية والثقافية والتاريخية التي شكلت نهضتنا

وحضارتنا, ولكن ليس عودة كلاسيكية وتراثية تقليدية تجعل الذات مسجونة في إطار تاريخي تراثي توارثي, بل يجب أن تكون عودة إلى وعي الذات ووعي الآخر, وليس رفضه وإجراء القطيعة معه, وعي الواقع بموضوعية والتعامل معه، ثم نعمل على تأسيس رؤية مشتركة, ونصوغها على شكل أهداف إستراتيجية، وقلت: إن الديمقراطية يجب أن تكون خيارا أساسيا من أجل تحقيق واقع عربي إسلامي مستقر ومنظم يؤسس للاختلاف العقلاني، وقلت: إن تركيا هي النموذج الكامل الذي يجب أن نمضي على دربه؛ لأن تجربتها غنية بالكثير من الإيجابيات؛ ولأنها التعبير الأصيل عن سلامة انتمائنا العقدي والحضاري والتاريخي.. إن الوعي بالذات هو الأهم الآن, وإعادة الكشف هي بمثابة إعادة بناء الذات واستنهاض الوعي؛ "ذلك أنه من الصعب على مجتمع ضعيف الوعي وضعيف الذاكرة التاريخية أن يترك بصمته وأن يخط كيانه في مسرح التاريخ؛ حيث إن نوعية الإدراك التاريخي لأي مجتمع تعتبر الفارق الأكبر بين المجتمعات الفاعلة التي تمتلك طموحات بخصوص التأثير على المجرى التاريخي, وبين المجتمعات السلبية الواقعة تحت تأثير الغير والتي يتحدد وضعها في سياق المجرى التاريخي" .

إنه لا وهْمَ عندنا في أن تغنِّي العربي بمآثره الفكرية والفلسفية وابتكاراته الثقافية والحضارية وفتوحاته الواسعة لن يغنيه عن التفكير الفعلي بواقعه الراهن, بل يحتم عليه حتى يظل أمينا لإبداعاته السابقة العقلانية والتاريخية أن يكون حاضرا الآن في معركة إعادة إنتاج العالم بقواه وعلاقاته ولغاته ورموزه وأدواته ووسائطه .

ميزتي أنني لا أستطيع أن أرى الإنسان في مظهره, بل في حديثه وسلوكه ورؤيته؛ لأن المظاهر تخدعنا عن جواهر الإنسان الدفينة أو عما ينطوي عليه من قبح ذاتي أخفته بهارج الزينة الخارجية المزركشة.. على أن الأمر لا يتوقف عند ذلك فحسب, فنحن مطالبون باكتشاف مضامين الكلمات والرؤى والمقولات الفلسفية المنقولة والتنقيب في أبعادها وغاياتها وأهدافها وما تختزنه من قيم وأفكار وعقائد ورسائل وتوجهات وتوجيهات .

يقول خالد محمد خالد في كتابه "رجال حول الرسول" عن حذيفة ابن اليمان رضي الله عنه: لقد أوتي حذيفة من الحصافة ما جعله يدرك أن الخير في هذه الحياة واضح لمن يريده، وإنما الشر هو الذي يتنكر ويتخفى، ومن ثم يجب على الأريب أن يعني بدراسة الشر في مآتيه، ومضانه".

والكاتب الأريب يشبه – تماما - حذيفة رضي الله عنه، إنه لا ينخدع بجمال الكلمة ولا ينسحر بإيحاءاتها, إنه ناقد ذكي محصن بتعاويذ المعرفة, إنه يخترق طلاءها البراق؛ ليكشف عن مضامينها ومقاصدها وما تختزنه من بعد توجيهي؛ ليفك طلسمها, ويعري منطقها الداخلي وآلية اشتغالها العاطفي الذي من خلاله تمر إلى الوعي؛ لتستقر كقيم وتتحول إلى سلوك.

إن الأحلام هي الممكن في هذه البلدان التي تقع تحت قبضات الاستبداد والحكام المستبدين, وهي المستحيل التحقق؛ لأنها تفتقر إلى كل أسباب التحول إلى واقعٍ تحياه الأمم الحالمة.. إن أحلام شعوب الأرض تتحول إلى وقائع جديدة مبتكرة نافعة لها، فيما أحلامنا أغرقتنا في اليأس؛ لأنها باذخة وجميلة, لكنها مستحيلة .

من حق الإنسان أن يحلم بعالم يخلو من الاستغلال والعنف والسلطة، ويخلو من الفقر والتعاسة النفسية والمادية، من حق الإنسان أن يحلم بعالم يخلو من المؤسسات العسكرية، ومن أجهزة القمع بكل أنواعها.

إن من حق الإنسان أن يحلم بعالم يغمره الرخاء والازدهار والسعادة والتضامن الإنساني، ومن حقه أن يحلم بعالم مملوء بالخلق والإبداع، ومبني على التعاون والحب بين البشر، غير أن "الحق" ليس كافيا لتحقيق هذا الحلم البسيط, فلتحقيق هذا الحلم لا بد لنا أولا: أن نستيقظ من غفوتنا، لابد للإنسان لكي يحقق ما يعتقده حقا أن يستيقظ، وينهض من فراشه، ويغسل وجهه بالماء البارد، ويخرج إلى الشارع.. لابد له أن يتحرك من مكانه ذلك, إن حركة الإنسان المستمرة في المكان والزمان هي التي تحدد صورته في لحظة معينة ومكان معين, وتحدد علاقته بكل ما يحيط به، إن الذات الواعية -كما قلت من قبل - هي القادرة على اكتشاف ذاتها وقوتها وإصلاح سلبياتها والاستفادة من ماضيها, والطريق إلى الحقيقة يبدأ من داخل الإنسان .

وما نحتاجه ليس الإصلاح السياسي أولاً، وإنما هو الإصلاح الآدمي، فالسياسة أصبحت علما، والاقتصاد كذلك كما هو الحال مع الطب والهندسة والعلوم الأخرى، وهؤلاء كثر، ومأزقنا ليس في تمكنهم من مجال اختصاصاتهم، وإنما في فقدان ثوابت الأخلاق وسطهم، وفقدان هذه الثوابت لا يبقى محصورا عند هؤلاء, وإنما يمتد ويتسع ليشمل كافة قطاعات المجتمع.. الإصلاح

المجتمعي هو الأساس, وإذا صلح المجتمع صلحت كل الجوانب الأخرى سياسية واقتصادية وغيرها .

إن ما نحتاج إليه هو إعادة ترتيب مجتمعاتنا, وهذا الترتيب لا يبدأ إلا من الإنسان، والتغيير -كما يقولون - يبدأ من "أنا", ومن يريد أن يقوم بإصلاح غيره فعليه أن يبدأ بنفسه, فلن يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.. كما إنك لا تستطيع أن تخرج القذى من عين أخيك وتنسى الخشبة التي في عينك، ولن ينتج الأفراد الفاسدون إلا مجتمعا فاسدا, ولا يحكم المجتمع الفاسد إلا فاسد منهم .

الحكام منهم والمعارضون، والحالمون والواهمون المسالمون منهم, والمشاكسون لا يوجد عندهم ما يطمئن إليه القلب إنها مصالح تصطرع، وهذا واقع الدنيا.. إن خلافنا مع الساسة ليس على "فعل" الصراع, وإنما على ضوابط الصراع .

هم يرون أن مهمتهم هي تحريض الناس على الصراع وتأجيجه والوصول به إلى أقصى مستوياته حتى يحسم في النهاية.. كل يريد أن يحسمه لصالحه وله في كل ذلك علم وفلسفة ونهج وتكتيك وأدوات وقواعد انطلاق؛ غير أني أرى بأن التلطف في الصرع وإفساح مساحات للتناغم واعتماد التنوع الطوعي لا التصنيف القسري هو الأليق بالإنسان، وهذا أمر يجوز في عالم الأفكار أيضا؛ حيث يقال بأن صراعها لا رحمة فيه، وأقول ما جدوى الفكر في غياب الرحمة؟!

إننا يجب أن نتعلم كيف نرفض على الأقل، فالرفض يسبق المقاومة، الرفض خيار المستضعفين والأقوياء في آن واحد؛ بمعنى: أنه أسهل أسلوب ينتهجه المستضعف, وأشق أسلوب يختاره القوي, لكنه سلاح لا يفشل من يلتزمه ويؤدي إلى نتائج حاسمة, ومصدر روعته أنه يعطي "الصراع" طابعه الإنساني, ولا يفقده رصانته وكبرياءه, يحاصر مصادر الشر ونوازعه فيقضي عليها في مهدها، يحول الخصم إلى آخر يختلف معك حسب ضوابط وثوابت تم التراضي عليها, ضوابط وثوابت تأتي من داخلنا ولا تفرض علينا من الخارج نلتزمها؛ لأنها تصبح جزءا من أدمغتنا".

إن النظم العربية ذات طبيعة استبدادية واستحواذية ونفسية قمعية؛ ولذلك لا يمكن أن تبني أوطانها وشعوبها, ولا يمكن أن تستمر؛ لأنها تفتقر إلى المقومات اللازمة لبقائها, إن السقوط والانفجار من الداخل هو النتيجة المنطقية لأي "نظام سياسي" لا يمتلك وسائل الحماية الذاتية, والمقصود بالحماية ليست القوة، وإنما "مشروع المجتمع, وشفافية التسيير, وحسن توزيع الثروات على مجموع أفراد المجتمع, وعدم التصادم مع مكونات الشعب", فإن كل وسائل التأييد الخارجية لا تنفعه؛ لأنها ببساطة ليست من طبيعته, فإن لم يكن يمتلك هذه المقومات فإنه حتما سيسقط, وسيخلفه نظام آخر لديه مقومات البقاء, وهكذا دورة الأنظمة لا تختلف كثيراً عن دورة البداوة والحضارة عند العالم الاجتماعي.. "ابن خلدون".

الحقيقة أنه لا ينبغي أن ننتج أفكارا فحسب، إن الأفكار يجب أن تجد الحوامل الداعمة لانتشارها وتحولها إلى مشروع استراتيجي يتبناه المجتمع، إن

وجود أكبر قدر من النخب التي تعمل على تأصيل وإيصال الفكرة في الذهنية العامة لتتحول إلى وعي نهضوي, ووجود الوسائل الإعلامية المختلفة التي تبثها كأفكار، والمحاضن التربوية التي تحتويها لتصبح جزءا من تربية "رؤية المستقبل" وذهنية تشكيله، كل ذلك يتضافر من أجل تحويل الأفكار إلى واقع نهضوي يُعاش ويُحس ويُلمس، إن الأفكار تبقى معرفة محبوسة في الكتب وفي ذهنية منتجيها إذ لم توجد الحوامل القادرة على نشرها والتبشير بها وتحويلها إلى ثقافة اجتماعية تنسج الأحلام والتطلعات المجتمعية, وتحرك الخيالات الطامحة، وتشق دروبا جديدة لمسار الأجيال والشعوب.

إن تأسيس الفكرة في الوعي الجمعي عملٌ يتطلب أولاً: إيجاد البنى العقلية التي تستوعب مضامين الفكرة وجوهرها وتؤمن بها؛ ومن ثم تنشئ المؤسسات والأدوات اللازمة للقيام بحملها؛ لتصبح رؤية استراتيجية عامة، ولابد من عمل تثقيفي مستقطب للعقول القادرة على الإيمان بها وامتثالها. إن الشعوب تتطلع دائمًا إلى الأفكار التي تعزز من قدرتها على الحياة الإنسانية الكريمة، وتحتشد إلى جانب الفكرة التي لا تحتوي على نزعة التمايز والأنانية والعنصرية، وتصطف إلى جانب الفكرة التي تمنيها بالعدالة والحرية والكرامة، وصناعة النهضة والحضارة التي تحلم بها .

إن الشعوب مهما بلغ بها الجهل عادة، تمتلك من رصيد الخبرة ومخزون المعاناة ما يجعلها تنشد الحياة الإنسانية السوية وإمكانية تحقيق النهضة والحضارة والحرية والعدالة.. إن شغف الإنسان ليكون شيئا جديرا بالكرامة مستمرٌّ, وتوقه إلى تحقيق كماله على هذه الأرض نزعة جوهرية في أعماقه،

ولابد من استغلال حاجته إلى تحقيق هذه الأحلام والتطلعات من أجل الدفع به نحو أن يسهم وبقوة واقتدر من أجل تحقيق مشروع النهضة والتقدم.

يقول أحد المفكرين: "إن السلوك الإنساني لا ينضبط ابتداءً طبقاً لخطة عملية, ولكن تبعاً لموجهات وإيحاءات نفسية تخلق أفكاراً وقناعاتٍ جديدة راسخة، تحل بديلاً عن الأفكار والقناعات السابقة".

وفي اليمن نحن بحاجة إلى بلورة رؤى جديدة تخرج السياسة من بوتقة المكائد السياسية وألعابها الضارة إلى رحاب العمل السياسي الناضج الذي يمارس السياسة كمنهجية علمية تهدف إلى البناء الوطني وتحقيق الطموح والحلم الاجتماعيين في التنمية والنهضة والحياة الحرة الكريمة .

لا ندري إلى أين ستصل الأمور فيما يتعلق ببناء الدولة وإنتاجها بعد دخول معطيات سلبية جديدة والانقلاب على الثورة من خلال تواطؤ رئيس البلاد عبده ربه منصور هادي وبقايا النظام السابق مع حركة العنف "الحوثية" المسلحة التي لا تمتلك أي مشروعية سياسية أو وطنية سوى منطق القوة والإرهاب, ولا ندري كيف يمكن أن يكون شكل المستقبل؛ خصوصا وأن معيقات الإصلاح في هذا البلد كثيرة, ومعاول الهدم تتغلب على يد البناء الواحدة ، بالإضافة إلى التدخل السعودي الإماراتي الذي خاض حربا في اليمن ضد الحوثيين من منطلق حفظ الأمن الذاتي ومحاولة تكريس النظام السابق بأسلوب مختلف يضمن تبعية اليمن وسيطرتهما على مجالاته الجغرافية الاستراتيجية والحيوية الهامة كالجزر والموانىء والسواحل ومناطق البترول والغاز ومحاولة دفع جنوب الوطن إلى الانفصال لضمان

إحكام السيطرة على موقعه الاستراتيجي ، وإبقاء اليمن ضعيفا مفككا ، لأن وحدته ونهضته وبناء دولة يتم تبادل سلطتها سلميا تشكل خطرا على عروش الأسر الخليجية الحاكمة ويقدم نموذجا فريدا في الحكم والسياسة البناءة الناضجة ، كما أن وجود دولة قوية ديمقراطية فيه تخدم الشعب وتحقق إرادته وتطلعاته في النهضة العلمية والاقتصادية والصحية والتنموية الشاملة وتعيد الحيوية لموقعه الاستراتيجي بمجمله يعني سلبا لمكانة هذه الدويلات الملكية الأسرية التي تفتقر إلى مقومات تاريخية وحضارية واستراتيجية وسياحية حتى ، والتي لا تملك سوى النفط الذي جعلها هدفا مستمرا للقوى الدولية في صراعها على منابع الطاقة ، وربما يتم الاستغناء عن نفط الخليج في غضون عقود قليلة قادمة فالنفط الأفريقي يشكل اليوم الاغراء الأكبر للقوى الدولية المتصارعة فيما ستبقى قطر هي الدولة الخليجية الهامة والمؤثرة لامتلاكها لمخزون الغاز الذي يشكل مطلبا عالميا هاما.

إن لإصلاح عملية معقدة باعتباره يتناول المجتمع الذي هو بطبيعته يحمل خصائص متشعبة ومتداخلة .

إن تقديم وصفات جاهزة للإصلاح لا يحقق النتائج المرجوة, وحتى لو افترضنا أن المجتمع الذي نريد إصلاحه يدين بدين واحد فإننا نجد الاختلافات واسعة المدى اجتماعياً .

ولذا كان التأني والتدرج والخبرة العالية والإمكانيات الكافية والمقدرة الإدارية والمصداقية في كل ذلك، من ضرورات القيام بالإصلاح بعد

التنسيق بين هذه العناصر وغيرها والتي تطلبها عملية الإصلاح، وبناء الدولة الوطنية المدنية القوية .

فالنظام السياسي الذي يعبر عن حساسية الجميع ومصالحهم، هو القادر على صيانة الوحدة الوطنية في كل بلد.. إن المطلوب لبناء وتحقيق استقرار سياسي واجتماعي عميق هو بناء الديمقراطية في مختلف مجالات الحياة العامة، وحدها الديمقراطية وسلطة القانون وحيوية مؤسسات المجتمع المدني، هي التي تحول دون الاستبداد والانحراف والتراجع إلى الوراء.

إن الأمل الذي يولد بداخلنا له أسباب متعالية تولد فينا الإحساس به وهو لا يتأتى من كوننا نحلم فحسب, بل من كوننا نرتكن إلى قوةٍ مَّا هي التي تمنحنا ذلك النبض الجميل المتفائل, ولقد عشت أزمنة مديدة محفوف بمخاطر التحديات, ومحاصر بالقطيعة التي كانت تفرض نتيجة ظروف خارجية لا تنبثق من ذاتي, لكنني حين كنت أتطلع إلى السماء أحس باحتفائها بي وبأن النجوم كانت وهي تومض تحادثني, كان يحدث هذا في كل ليلة مظلمة تزدحم فيها الكثافة الضوئية في السماء لنجوم تشع من بعيد في أقاصي الكون؛ الأمر الذي يمنحني طمأنينة أن من نجومها لن يتخلى عني, وعليَّ أن أثق به مهما كانت أخطائي وعثراتي، كنت أعمل في "تبزيغ" القات وكانت الطريقة الوحيدة للحصول على ما أستطيع به توفير تكاليف دراستي الإعدادية والثانوية هو أن أعمل في هذا المجال، لم تكن الحياة سهلة أبدا, صحيح أنها غدت لا تحتمل, لكن الثقة بالله تفتح ألف طريق للأمل.

إن القراءة - كما قلت من قبل - تلعب دورا في إنضاج الإنسان, إنها تخرجك من حالة البلادة وانعدام الإحساس بإنسانيتك إلى الشعور بذاتك ووعيك وقيمك التي تؤمن بها ومبادئك التي تعتنقها، أخذت أبحث بين كوابيس الواقع عن فكر يعيد إليَّ فهم ديني ويعزز ثقتي التي كدت أفقدها فيه، كنت أقرأ باستمرار في أي مكان أدخل يدي تحت تشابك أشواك لـ"زربٍ" كثيف لأخرج ورقة أقرؤها، وكانت ثمة مفاهيم تعزز يقيني وتمنحني القوة والتفاؤل، قاتلت عن خياراتي الحرة الواعية بشكل مستميت, فضلت الجوع والبؤس والتشرد والبحث عن إطار منظم لقوة تؤمن بهذا الدين, فكان سيد قطب يضع الإشارات والمعالم والبناء, يومض من بعيد من خلال أبنية الحقيقة الناصعة المشرقة في أصوله العشرين ووصاياه العشر، كنت أدرك أن الواقع ليس كالمثال وأن النضال الواعي المستنير يمكن أن يوجد نقاط التقاء بينهما وربما تماهيًا, فالانشداد إلى المثال وحده يفصلك عن حركية الواقع, والانشداد إلى الواقع وحده يفقدك جمال المثال وسموه, فكان لابد من المزج بينهما لصنع الهداية اللازمة الواعية, وكان لابد من تجاوز الواقع بالمثال، حتى تحتفظ بإنسانتيك، كانت كلمات سيد قطب تلامس روحي, فتعيد شحن طاقة التحدي: "إن جيلا زرعته يد الله لن تحصده يد البشر".

أعترف أنّ الكلمة كانت تشد من أزر روحي، كانت تميط رداء التعب من على قلبي, وكانت تجبرني على الشهيق والزفير من خلالها .

لن يذكرني التاريخ ولن يقرأ كتابي أحدا ربما ، أنا إنسان بسيط ومتدين حر ،ملتزم ومنفتح على الحياة ومندهش بتفاصيل الكون المحاك من حولي

إبن أمٌ بدوية لم تتعلم أو تدخل مدرسة يوما لكنها تمتلك فطرة ذات حساسية أخلاقية عالية جدا، أتقنت تربيتي وتصنيع مادة الكرامة في نفسي وكافحت بعزم من أجل تعليمي وأخبرتني أن صلاة الفجر مفتاح الأمل ، أم قد تموت وتنسى لكنها علمتني في النهاية وانتصرت على جهلها من خلالي ..

الإنسان عندما يريد أن يتجاوز المحن مهما كانت قوية ومهما ظن الناس والمتخصصون أنه لا يمكن تجاوزها، يمكن للإنسان أن ينجح؛ شريطة أن يؤمن بنفسه، ويحاول أن ينجح .

فلكي تنجح لا بد أن تكون مرنا ، كن مثل الماء لا شكل له، عندما تضع الماء في كأس يصبح كأسا، إن وضعت الماء في قنينة يصبح على شكلها، إذا وضعته في إبريق شاي، يصبح إبريق شاي، الماء يتدفق ويتحطم.. كن كالماء يا صديقي !!

لكي تكون أحسن ما يمكن أن تكون لا تقلد الآخرين, ولا تأخذ خطوات نجاحهم وتعيد تمثيلها، كن مؤمنا وواثقا بنفسك, وعندها ستنجح.

ليس الأمر أن تقلد الآخرين تقليدا أعمى، أو تتبع ما يقوله الآخرون بشكل حرفي دون أن تفكر، بل المعنى الحقيقي لفهم الحياة والنجاح فيها هو أن تأخذ أحسن ما يمكن تعلمه وتجربه بطريقتك الخاصة، وأضف ما تراه مناسبا, واحذف ما تراه غير مناسب, وبمعنى آخر: أضف إلى نفسك ما يجعلك أكثر قدرة على أن تكون أنت .

"تعلم المرونة، تعلم أن تغازل الكون وتلاطفه.. إن الالتفاف على المشكلات لا يعني – بالضرورة - الهزيمة، فليست ضربات المعاول وحدها

هي التي تحطم الصخور، بل لعلّ بعضها لا تحتاج أصلاً إلى التحطيم، هل فكرت بهذا؟!

فإذا ما أسقطك التعب على أبواب أحلامك, بعد أن طال الصراخ على العتبات وما من مجيب فاسترح لبرهة, وتناول وجبة أمل وثبات, واسجد بين يدي ربك وادعه بيقين ضارعٍ, ثم انهض من جديد بروحٍ أخرى, فما أكثر الدروب إلى السماء" !!

لكي تنجح في حياتك لا بد أن تجرب ما تعرفه، حسب تجاربك ومعرفتك، حاول النجاح، لا تبق دائما على كرسي الاحتياط تتفرج على اللاعبين الأساسيين ينجحون، وأنت تقف منتظرا خروج أحدهم؛ لتأخذ مكانه.. عليك أن تمسك بخيوط المعرفة وتتبعها دائما, والمعرفة: هي أن تنمي وتطور ذاتك في كل شيء, وتتعلم من تجاربك في خلق إنسان واعٍ راقٍ, جميلٍ من الداخل كما هو من الخارج, غنيّ بفكره وعقله وتصرفاته وسلوكه كما غناه بقيمه وأخلاقه ومبادئه، ملتزمٍ معطاءٍ محبٍّ خلوقٍ عطوف .

فمن يملك حلماً عليه أن يسعى إلى تحقيقه, والنجاح يحققه - فقط- الذين يواصلون المحاولة بنظرة ايجابية للأشياء وقراءة فاحصة للتحديات واختراع الأفكار التي تشق المسارات الناهضة؛ ولأننا - الإسلاميين - لدينا حلم ومشروع ورسالة فيجب علينا ألا نيأس أبداً، ويجب أن نربط نجاحاتنا بالعمل المنضبط المنظم الذي لا بد من استمراريته حتى تصبح أحلامنا واقعا نحياه ويحياه الجميع .

ذات مرة دخلت في حوار حقيقي مع صديق رائع ومثقف نبيل بدت عليه علامات الانكسار.

قلت له: يا رجل أنا على ثقة أن شابا نبيلا ولطيفا مثلك ومثقفا وعلى قدر من الوسامة والذكاء العاطفي يستطيع أن يتجاوز تحدياته الذاتية وظروفه الواقعية بجدارة .

فرد قائلا: ظن الآخرين بنا أحيانا يجعلنا نصبر ونقامر, ولكن لكل شيء نهاية.

قلت له بكل ثقة: لا تقلق لا تدع أحداً يشعرك أنك لا تستحق ما تريده، كثيرٌ من الإيمان وقليلٌ من الصبر جدير بإعادة مجرى حياتك إلى تدفقها الطبيعي .

فرد قائلا: "لا تدع أحداً يشعرك أنك لا تستحق ما تريده" !! أشكرك هذه العبارة ستمنحني دفعة قوية !

قلت له: أحيانا يا صديقي نحتاج إلى الألم؛ كي نعرف من نحن !

فرد قائلا: لكن الألم إذا كثر أصبح عبئا يعيق انطلاقتنا .

ثم قلت له: وفي اللحظة التي نقر أننا لم نعد نريد شيئا من الحياة تبدأ الحياة بتحقيق ما كنا نتمناه منها, فتفاءلْ وابتسمْ وارسمْ دائما ابتسامة في فمك, أوهمهم على الأقل أنك لست منكسرا وما زلت تختزن طاقة التحدي والأمل.

رد صديقي قائلا: أنت عميق في الأمور النفسية الاجتماعية, وتعرف كيف تتعامل مع مجتمع معاق في وعيه، والله ليست مجامله أنا مجرب كل ما أراك قويا يطلبونك, ويتمنون صداقتك !!

قلت له: شهادة أعتز بها, فحين تكون قوياً من الداخل تشكل قوتك الداخلية مركزية استقطاب وجذب فعال الكل يدور حولك باحثا عن مختزناتك القوية؛ كي تمنحهم ما يفتقرون إليه .

"قوة الموت والحياة تكمن غالبا في اللسان، فكلمة مشجعة لمن هو في الأسفل قد ترفعه إلى الأعلى, وتجعله يحقق ما يصبو إليه, أما الكلمة المحبطة لمن هو في الأسفل فقد تقتله؛ لذلك انتبه لما تقوله، وامنح الحياة لمن يعبرون في طريقك، وبإمكانك أن تنجز ما قد هيأت عقلك له وأعددت نفسك لفعله؛ فقط لا تدع الآخرين يجعلونك تعتقد أنك لا تستطيع ذلك".

وعندما نفشل في تحقيق ما نريد من حياتنا فمن الجيد أن نفكر في مساعدة الآخرين؛ لتحقيق ما يريدون، سنكون عندها على الأقل ساهمنا في تحقيق نجاحٍ مَّا، نجاح قد يفوق بمرات ما كان يمكن أن نحققه نحن .

إن نجاحنا قد يكون أيضا في إسهامنا لتحقيق نجاحات الآخرين التي يمكن أن توسع من دائرة الخير الاجتماعي .

عام ١٩٧٤م كان "مهاتير محمد" ضيف شرف في حفل الأنشطة الختامية لمدارس "كوبانج باسو" في ماليزيا, فقام "مهاتير" في ذلك الحفل بطرح فكرة عمل مسابقة للمدرسين وليست للطلاب !!

وهي توزيع بالونات على كل مدرس، ثم طلب بأن يأخذ كل مدرس بالونة وينفخها ومن ثم يربطها في رجله، وفعلاً قام كل مدرس بنفخ وربط البالونة في رجله .

جمع "مهاتير" جميع المدرسين في ساحة مستديرة ومحدودة وقال لهم: لدي مجموعة من الجوائز وسأبدأ من الآن بحساب دقيقة واحدة فقط، وبعد دقيقة سيأخذ كل مدرس مازال محتفظا ببالونته جائزة !!

بدأ الوقت وهجم الجميع على بعضهم البعض كل منهم يريد تفجير بالونة الآخر حتى انتهى الوقت .

هنا وقف "مهاتير محمد" بينهم مستغرباً ؟! وقال: لم أطلب من أحد تفجير بالونة الآخر ؟

ولو أن كل شخص وقف بدون اتخاذ قرار سلبي ضد الآخر لنال الجميع الجوائز.

ولكن التفكير السلبي يطغى على الجميع، كل منا يفكر بالنجاح على حساب الآخرين .

مع أن النجاح متاح للجميع، لكن للأسف البعض يتجه نحو تدمير الآخر وهدمه؛ لكي يحقق النجاح، هذه وللأسف حقيقة موجودة في حياتنا الواقعية.

ذات مرة من عام ٢٠٠٦م، كتبت لأحد الشباب الذين تعرضوا لاستفزاز رخيص التالي:

عندما تظل كبيرا رغم تطاول الصغار عليك تكبر في عيون الناس وترتفع فوق هامات الكل, لكنك حين تستجيب لاستفزازاتهم تعرض بنفسك وتتساوى في نظر الكبار والصغار مع كل ضيق أضرَّ بك, أو حاول استدراجك إلى ساحات موبوءة لم تتصور أن ترى نفسك تهبط إلى دركتها.

إن النفوس الكبيرة والممتلئة ثقة وإخلاصاً تظل أكبر بكثير من محاولات الاستدراج إلى ساحات موبوءة وغير كريمة.. إن تجاهل الأفّاكين والمعتوهين لا يعتبر عجزاً, ولا يعكس قصوراً، ولكن يعبر عن احترامٍ للنفس, وارتقاء بها فوق كل الصغائر، وتجاوز كل ما هو رديء ودنيء .

صحيح أن الصمت ممرض للنفوس الكبيرة؛ لأنها لا تحتمل الباطل ولا تقبل التضليل, لكن الله علمنا مدى عظم الأجر للكاظمين الغيظ، والصابرين على البلاء وامتحان الأحياء؛ وبالتأكيد فإن كل موقف رجولي يعبر عن رأي لا يصدر عن "الهوى", ولا يتحرك في ضوء النوايا المريضة لا يمكنك إلا أن تحترمه وتتعامل معه بما يستحق، وحينما يحاول أنصاف الرجال وحثالة الآدمية استدراجك واستفزازك لا تملك إلا أن تفعل كما فعل الكبار حين ارتفعوا فوق ركام التراهات؛ لتظل جباههم عالية ونفوسهم كبيرة وعقولهم مصونة من التلوث .

وعندما يدرك "الموتورون" أن الضجيج لم يترك أثراً، وأن الاستعداء لم يشحن أية نفسٍ غير نفوسهم, وأن الكذب لم يضلل أحداً فإنهم يستسلمون لحالة قهرٍ حادة، ويزدادون تورماً وكرباً وحزناً، فالناس ليسوا متفرجين بلهاء، وليسوا "جوقات" يمكن أن يرددوا ما يقولون، كما أنهم ليسوا من "الغباء " و"الجهل" بحيث لا يدركون دوافع ما يصدر عن كل المهووسين والموتورين وأنصاف المرضى والمعتوهين .

إن قدرة الناس على التمييز والمعرفة دون تأثير قادرة على أن تنصفك ضد كل من أراد أن يظلمك, وهي عزاء الأقوياء ومصدر قوتهم وصلابة إرادتهم،

فالصادق لا يحتاج إلى من يزكيه، والمخلص لا يحتاج إلى من يدل على إخلاصه، والنظيف لا يحتاج إلى من يقول له: أنت أبيض كوجه النهار، لكنّ الكذابين وأنصاف المخلصين الملوثين ينتهزون أي فرصة لقذف الآخرين بالحجار، وإلصاق التهم بهم، واستعداء الناس عليهم؛ للفت الانتباه إليهم وإثبات ما عجزوا هم عن إثباته بأفعالهم وتصرفاتهم وممارساتهم الغريبة وأنماط تفكيرهم المريضة .

فسر واثقاً, وعش شامخاً, واطبع في الحياة صبغة وجودك الذاتي المتفرد, واعلم أن الحياة لا تنظر إلى المتعثرين في رمال النقد, واللاهثين وراء إرضاء الآخرين, ولكن يسفع بناصيتها الشجاع المقدام, الذي يقول للحياة كلمته دون تردد أو خوف .

وإذا وجدت لذة في ستر غيرك والإمعان في دفن تفاصيله فأنت إنسان فاضل جداً .

يجب علينا أن نمارس النصيحة وليس الفضيحة, أن نفعل من قيم الخير, وننشر الجميل, ونستر القبيح, فالستر علاج لما استعصى من انحرافات فردية أو اجتماعية مع ضرورة ابتكار الوسائل المناسبة للتقويم وتصحيح الأخطاء ومعالجتها, وقبل ذلك إجراء دراسات عميقة لمعرفة الأسباب التي أدت إلى بروز الظواهر المنحرفة في حياة مجتمعنا على المستوى العام والخاص .

إن على مَنْ يحمل هما رسالياً وإنسانياً ووطنياً ونهضوياً أن يمارس عملية مستمرة من التعليم والتأهيل والتدريب والتحفيز وتفعيل كل الطاقات

والقدرات, وعدم تجاهل أحد مهما قل شأنه في المجتمع؛ خصوصا أولئك الذين ينطوون على مظاهر بسيطة تستخف بها النفوس المتعالية .

إننا يجب أن لا نلهو بحثا عن المنتفخين بذواتهم, الفارغين من قيم الصدق وحقائق الانتماء، إن "التلهي" هي الحالة التي تسيطر على البعض؛ لأن الهدف البحث عن "المستغني" الذي ترى أن بإمكانك استقطابه شريطة أن تظهر عبوسك تجاه من لا يرقى إلى مستوى اعتباره مستحقا للهداية والتأطير وإن جاء باحثا عنها معك !!

هي حالة تتكرر في واقعنا الحركي اليومي, نبحث عن الجاه والوجاهة, ونعبس في وجوه الباحثين عن الحق والهداية والنور, نقترب من العتمة الكثيفة المنطوية على كبريائها الفج, وندع البصيرة المهتدية خارج سياق اهتماماتنا، يتكرر ابن أم مكتوم في حياتنا, ويعرض ذاته طالبا تفتيق بصيرته ومواهبه الذاتية؛ ليحمل معنا الهم والرسالة، ويتكرر الكبراء والأثرياء فنعادي البسطاء من أجلهم, ونستبسط أصالة أرواحهم؛ واضعين في اعتبارنا أن هؤلاء رعاع لا يستحقون التفاتتنا .

لكن "عبس" ستظل سورة عابسة في وجه التولي المعرض عن كل قلب وريف النور, باحثٍ عن حمل الرسالة بإتقان المستبصر لحقيقة الحياة والغاية من وجودها .

"وحينما تهمل الكيانات والمؤسسات احتياجات أفرادها، وما يريدونه لأنفسهم منها، يبدأ الانهيار الداخلي لانتمائهم لها، وتتحول العلاقة إلى محاولة هروب أو نفور مستمرة منها، ويتزايد الشعور بالاستنزاف؛ لأننا كبشر أحرار

لا نريد أن نقضي في تحقيق أحلام الآخرين وقتا أكبر من الذي نقضيه في تحقيق أحلامنا، وكما يكون الأفراد وسائل للمؤسسات، كذلك تكون المؤسسات مراحل للأفراد .

فلا تهملوا احتياجات من يعمل معكم، وحافظوا لهم على احتياجاتهم، حتى لا يوضعوا بين اختيارات كلها مرّة, فلا تجعلوا أنفسكم الاختيار الأمرّ.

مسمار قوة لا يصدأ
في جدار الزمن

قلت عن "البداية": إنها غير واضحة, وإنني لا أستطيع توقع "النهاية", لكني أدركت أنه ما إن تبدأ حتى تتضح بدايتك ونهايتك، وأن المسار يشق الدرب - كما يقال -, وأن ممارسة الحفر بالقلم هي الوسيلة الوحيدة لكشف الانبهامات، ومِنْ حركته على الأوراق والذاكرة تتوارد الإلهامات وتتداعى الأفكار وتنتظم على شكل حركة حرة منسابة في الأوراق.. إن القلم يمارس مع الورقة عادته المحببة بحب وعشق وشغف، إنه يسقيها من حبره عنفوان الحب الكامن، ويخصب مساحتها بذاكرتك التي تنمو وتكبر وتتحول إلى تجربة تلهم الأجيال.. ربما !

يقول أحد المفكرين: "إن إعادة تسمية المسميات وإعادة بناء معاني الكلمات على ضوء خبرات الشخص وتجاربه وقناعاته وظروفه هما الشريان الذي يغذي العالم الداخلي للإنسان؛ فهما بمثابة شريان الحياة للفرد والمجتمع".

إن ميلادي الأول بدأ حين بدأت أمسك بالقلم, وأتهجى حروف العربية، وميلادي الثاني حدث يوم أن ولد "يمـان" ابني في وقت كان يعتقد البعض أن فكرة الإخوان انتهت, وأن نساءهم لن ينجبن الأجيال القادرة على فعل التحدي والاستمرار وإنجاز المشروع والحلم واقتحام ثكنات الباطل المنتفش؛ لأكتب بكل اعتزاز ويقين يوم ميلاده في مستشفى السبعين بتاريخ ١-١٠-٢٠١٤م: "اليوم ولد أخ جديد من الإخوان المسلمين".

وفي كليهما ضمنت ذلك الاستمرار المفقود في زحام الحياة, ولقد اكتشفت أن الكلمة هي الأداة الأقوى في عملية الصراع, وأن الرصاصة لن تنجح, والقوة لن تفلح أو تصمد أمام قوة الكلمة المضيئة الصادقة, وسيموت القتلة عشاق الموت, ويبقى الأنقياء عشاق الحياة الكريمة، صناع نهضتنا الوطنية القادمة، سندفن أدوات القتل مع حملتها, وسنودع يوما ما آخر روائح البارود الذي شوش سلامة الحياة واستقامتها وصفاءها, واغتال رائحة النسيم العابر من شرفات بيوتنا بخفة وهو يلاطف فينا تلك الأحلام الجميلة التي ناضلنا كيمنيين جميعا من أجل تحقيقها .

ألم تكن نهايتي - عزيزي القارئ - واضحة ومتوقعة، على أن انتهائي من هذه الحياة سيكون أيضا واضحا سأموت يوما ما – ربما - وأنا استنشق روائح منعشة تنطلق من أفواه ورود القرنفل في مكان يتسع للصمت والجمال ورهبة الموقف وأنا ألفظ آخر أنفاس الحياة؛ مرددا الشهادتين؛ معتقدا بيقين أن ثمة سدرة منتهى في انتظار روح آمنت وأنامل حملت قلما وقيما, وبذرت الكلمة في الذاكرة مسمار قوة لا يصدأ في جدار الزمن .

المؤلف في سطور



رداد السلامي، كاتب وصحفي من مواليد ١٩٨٠م - الضالع – اليمن، بكالوريوس صحافة - جامعة صنعاء - كلية الإعلام, له كتابات فكرية وسياسية وأدبية في عدة صحف يمنية وعربية كـ "القدس العربي", و"النيوزوييك العربية", والأهالي, والديار, وعدد من المواقع الإلكترونية اليمنية والعربية .

يقول عنه الكاتب صالح اليافعي في ملتقى "قبيلة يافع" الأدبي مرحبا به: "قدم إلينا من هناك؛ من أطراف الزمن ضيفٌ أنيقٌ للحرف, قد تقوده ذات يوم أناقة كلماته وسيف حروفه إلى مشنقة الحتف, ضيفنا يا "فينوس" في منتديات قبيلة يافع، كاتب وصحفي يغار من حروفه الكبار, يكتب بروح

الأمل, يضع النقاط بقوة الإبداع,كاتب أعاد للكتابة رونقها الجميل، رغم صغر سنه؛ إلا انه تفوق على أساتذته" .

فيما قالت الأديبة الليبية "مريم جمعة عبد الله" في منتدى "إملاءات المطر الأدبي": مجبول على النبل أنت يا رداد، لا أقرأ لك شيئا إلا وتجلت سحابة بيضاء, تتحرى المطر, وإن لم تستطع استحالت ظلا يمنح الأرض فسحة من سكينة" .

وقال عن كاتبِ هذه السطورِ أحدُ الكتاب العرب معجبا بكتاباته عام ٢٠٠٧م: "حين كان يعري ممارسات النظام السابق: "رداد السلامي كاتب قوي جدا, وهو أحد الصحفيين القلائل الذين يمتلكون قلما قويا وأنيقا وعميقا في ذات الوقت, وكثيرا ما قرأت وأعجبت بغزارة تفكيره, لا أستطيع الآن الإسهاب, ولكن يكفي أن هذا الكاتب واحد من الذين أثاروا في اليمن أفكارا ماكان لها لتثار لولا أنه استطاع أن يطرحها بقوة وجرأة وتحد ليس له مثيل" .

فيما يقول عنه الأديب السعودي "ريان الوابلي" في منتديات "ملامح الأدبية": "لازال يلازمني هذا الحرف في كل مكان أذهب إليه, وفي كل يقظة تنتشلني إلى وشاحك يا رداد، قلمك يهمس للقمر, فتهرب النجوم إلى محاربها, ويبقى القمر وحيدا يحضن إحساسك العطري, مدهش يا رجل" !!

الكتاب الحقيقيون هم الكبار بما كتبوا, والبسطاء منهم من زرعوا في حدقات عيون أطفالهم ضوء الرجولة؛ لذلك من الصعب أن يحيا رداد السلامي خارج الكلمة, أو بعيدا عنها ومنها، هو رجل دائما تحييه الحياة بين

الكلمات, يكتب للغد, وينتظر ثمار بذوره الفكرية, رغم بساطته تجده ينطوي على أحلام لعالم يشبه كلماته يتكوَّن في مخيلته الغضة صديق حميم للقلم والكتاب, حياته فكر وقلم, وحياة المفكرين طويلة حتى بعد موتهم.. الكلمة عند رداد السلامي هي الحياة, والاستقالة عنها استقالة عن الحياة, وحكم بالموت, وانطفاء لدفق الحركة والحيوية, وإعدام للمستقبل .

يقول أحد القراء في فيس بوك: "مع كلماتك يا رداد نكتشف للأشياء من حولنا معاني جديدة.. ويقول آخر: "حياتك زاهية ومرصعة بجل عوامل صنع الرجال, يحتاج الواحد منا أن يتذكر ما عاشه من القسوة؛ ليكون سبباً في دفعها عن أبناء بلده.. أنت أحد الذين يزيحون شيئاً من القسوة التي تحاصرنا يا رداد" .